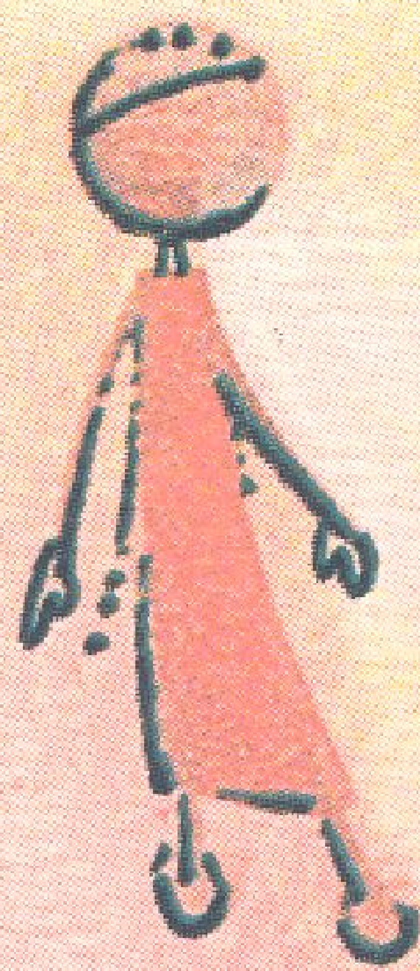
الجسد الصغير

محمّد بلقاسم الهوني



المنشأة العامة للنشر والتوزيع والاعلان
طرابلس - الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية

الجسد الصغير

محمّد بلقاسم الهوني

الجسد الصغير

المنشأة العامة للنشر والتوزيع والاعلان
طرابلس ـ الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية

الطبعة الأولى
1978م
الطبعة الثانية
1394و.ر ـ 1985م

المنشأة العامة للنشر والتوزيع والاعلان
طرابلس ـ الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية
ص.ب 959 مبرق 20235 "نيتليبيا"

الحرمان

وجدت نفسي وحيداً في الحياة، لا تربطني بأحد صلة ما. وعندما تلفت حولي.. أدرت رأسي الصغير، أسأل عمن أوجدني في الحياة ثم تركني، عالة على الغير وخلفني وحدي قالت لي والدتي:

ـ «إنّه مات في الحرب..».

كان جواباً قاسياً، أخرسني ومن يومها لم أعد محاولة السؤال..

كانت والدتي في العقد الثالث من عمرها، اتشحت

بالسواد في هذه السن المبكرة، فأصبحت ترى كل شيء بتشاؤم وتحفظ.. بحماسة تنقصها الحرارة، ولم أرها يوماً تبتسم بصدق.. فابتسامتها دائماً صفراء سقيمة كأنها مطبوعة لا تتغير.

ورفضت الزواج من أجلي، وآثرت أن يكون شبابها وحياتها لي وحدي، فهي لا تريدني أن أتربى، أعيش في أحضان رجل غريب حتى ولو كان زوجها..

وكان لا بد لنا أن نعيش.. نحيا وسط هذه الحياة التي تفتقر إلى الاطمئنان فقد كنا دوماً مهددين بالمبيت وبطوننا خاوية، ولا تستر أجسادنا إلا ملابس لم تفلح.. لم توفق في إخفاء مواضع عديدة من جسمنا..

وبعد أن استقرت الأمور، عملت والدتي، في بيت أحد أغنياء الحرب.. أولئك الذين قفزوا إلى الثراء دفعة واحدة، فلا تستطيع أن تعرف كيف اكتسبوا هذا المال..

كانت والدتي دائماً تجول في ذلك البيت الكبير.. ترعاه بالعناية والنظافة والغسيل، وعندما تجلس وقد أنهكها التعب.. استهلك بقية صحتها وشبابها، تجلس وقد افترشت الأرض في انتظار ما قد يجد.

كانت تعمل خادمة..

وفي المساء ترجع.. تجر خطواتها تعباً وإعياءً، تقف في الطريق بين الحين والآخر، تلتقط أنفاسها اللاهثة، ترجع وفي سلتها القديمة بعض الأكل، فأنتظرها أنا بصمت وترقب، وتلمع عيناي بالفرح عندما تطل من الباب بقامتها الطويلة السمراء فتفرغ بين يدي ما حملته معها وهي جالسة في استرخاء وإعياء.

كنت أشعر أن أشياء كثيرة تنقصني.. أشعر بمدى أهميتها الخاصة عندي ويتبلور هذا الإحساس والشعور في شيء معين محدد أشعر بقوة عنيفة لوجوده، عندما يتحدث الأطفال عنه، وهم يعقدون حلقات السمر في المساء، فالجميع يتحدثون عنه بشيء من الفخر

والاعتزاز، ويلون قسماتهم الصغيرة الفرح والاغتباط. أما أنا فألوذ بالصمت فليس لديّ ما يمكن أن أتحدث عنه، كنت أحسد هؤلاء الأطفال على تمتعهم بشيء حرمني القدر منه دون أن يكون لي دخل في ذلك، فتعتريني الكآبة والضيق فأنسحب من مجلسهم في صمت وهدوء: فلا يتأتى لإنسان أن يشعر بقيمة وجود والده في حياته إلا من حرم منه.

ولما اتسع بيت ذلك الثري، اقترحت زوجته على والدتي أن نقيم معها في الدار الخالية الملحقة بالبيت فاعترضت والدتي:

- «ولكن ابني، خالد..»

فأجابت السيدة ضاحكة:

- «يقيم معك.. سوف يكون خير رفيق لابنتنا: هدى»

وهكذا فقد ودعنا حياتنا السابقة بكل ما حفلت به من الذل والحرمان وانتقلنا إلى ذلك البيت الكبير،

وشعرت أنا بالارتياح، غير أن والدتي قالت في إحدى المناسبات وهي تتنهد:

- «الإنسان لا يستريح إلا في بيته..»

وكانت والدتي من ذلك النوع الذي يكتسب ثقة الناس بسرعة لأمانتها وعفتها وبساطتها..

وكنت في ذلك الوقت في العاشرة من عمري، لا يفصلني عن: هدى سوى سنتين فجمعت بيننا الطفولة، فكنا دوماً معاً لا نكاد نفترق، وكنت محل عطفها، فهي دائماً تقتسم معي ما تحمله ونتشارك في اللعب في سذاجة وطهارة، وأشعر بأن إحساساً يشدني إليها.. يربطني بها: فالطفولة يا صديقي لا تعترف بما يسمى في الاصطلاحات الاجتماعية: بالطبقات.. ومن هنا كانت قوة الرابطة وعمقها.. حينما يتم التعبير عنها بدون رياء أو نفاق..

وفي أحد الأيام مرضت.. لزمت الفراش فلم أستطع مع كثرة حركتي وشقاوتي أن أقاوم المرض.. كنت

أشعر بارتخاء في كافة جسمي وأتقلب من الحرارة التي اندلعت فيه وأن ساقيّ لم تعد تقويان على حملي.. فجزعت والدتي، وتولاها القلق وأصبحت فريسة للهواجس والأوهام السوداء.. تعصف بها بعد أن هادنتها الحياة فترة، وإن كانت تناوشها من بعيد في أشياء لا تمت إليّ بصلة ما.. وعندما أفتح عيني أجدها جالسة بجواري.. تتحسسني وهي تبكي.

وفي اليوم التالي دخلت علينا: هدى، ورأتني مسجى، والدتي جالسة بجانبي فابتدرتني بالقول وهي تبتسم:

- «عندما لم تحضر اليوم قلقت عليك.. فقد افتقدتك..»

فأجلستها والدتي قريباً منها، وقالت في ثقة وإيمان وأنا أجيل النظر في هذه القسمات الحلوة:

- «هدى إن: خالداً، مريض وسوف يلعب معك بإذن الله عندما يصبح قادراً على ذلك».

فقالت في براءة وصدق وإخلاص:

ـ «إن شاء الله».

ولزمت الصمت قليلاً، وخيل إلي أنها تغالب شيئاً ما في أعماقها، شيئاً لم توفق قسمات وجهها في إخفائه، فخفضت بصرها إلى الأرض واستطردت:

ـ «لقد عافت نفسي اللّعب..»

ولم تتحرك، فكانت تروي لي ما وقع لها يوم أمس حينما ذهبت في زيارة مع والدتها لأحد أقربائها، وهي تضحك، وعندما نادتها والدتها، لم تهتم أو تقم وفضلت البقاء.. وحينما أرادت والدتي حملها على الذهاب تشبثت بها تريد البقاء، فتركتها وبقيت بجانبي إلى أن أقبل الليل وأخيراً غلبها النعاس فنامت، وحملتها والدتي بين ذراعيها وأودعتها فراشها..

وبكت والدتي لهذا المشهد، ويبدو أنّه أيقظ في نفسها إحساسات شتى لشعور الحب والإخلاص الذي يمور في أعماق الصغيرة: هدى، وومضت.. برقت في

نفسهـا أمنية بعيـدة إلا أنها مستحيلة، في ظـل هذه الظروف، التي فرضت علينا نفسها دون أن يكون لنا رأي في ذلك..

ولما شفيت، ومن ثم أصبحت قادراً على التحرك، كانت: هدى، تصاحبني وتمسك بيدي وهي تضحك سعيدة فكانت والدتي تراقبنا من بعيد وهي تبتسم..

وحملت بين حنـايا أضلعي.. معـزة، مودة لهـذه الطفلة التي أضفت على حياتي نوعاً من الأهمية، وبدأ هذا الإحساس المشوب بالتحفظ - ينمو في داخلي.. يكبر معي، حتى اتخذ مع الأيام طابعاً خاصاً تحددت ملامحه.

وكنا في الدراسة في نهاية المرحلة الثانوية، عندما بلغت العقـد الثـاني من عمـري، واكتسبت قسمـاتي ملامح الرجولة المبكرة، واستقر فوق شاربي خط أسود رفيع..

وفي هذا الوقت كانت: هدى، قـد بلغت الثامنـة

عشرة، فاستدار قوامها وبرزت في جسدها أشياء كانت مستترة. . وقد اكتملت أنوثتها. . نضجت وثارت فيها. . عربدت دماء الشباب الحارة فتدفقت فيها بقوة وحرارة. .

كان أجمل ما فيها عينان واسعتان، يعبران عن كل ما يجيش في داخلها فتفضحانها. . وشفتان مفعمتان بالإغراء. .

وأحببتها. . وسرت النشوة في نفسي، ووصلت همساتي الوادعة ونظراتي الحالمة. . نفذت إلى قلبها فاستجابت إليّ هي الأخرى في صدق، فأنا من أولئك القلائل الذين يشعرون المرأة بالاهتمام والحرص والرقة، فأستميل مشاعرها وأستحوذ على قلبها. .

وكانت أسعد الأيام بالنسبة إلينا هي التي نقضيها معاً في الاستذكار حيث نجلس جنباً إلى جنب قريبة مني وعندما أحتك بها صدفة أشعر بحرارة جسدها تسري في جسمي، فأرتعش. . أنتفض. .

وكنت أرى أن الدراسة هي أملي الوحيد لأقف مع: هدى، لأكون جديراً بها وبحبها، فكانت تدفعني إلى الأمام في ثقة وحماسة.

غير أن والدتي كانت ترقب هذه العلاقة.. هذه الإحساسات والخفقات الدافئة بشيء من الحذر والريبة، خاصة عندما ترى أن أهل: هدى، يرسمون لها طريقاً ومستقبلاً آخر، فتراقب الأحداث الجارية أمامها في صمت وترقب..

وأدركت أنا أن هوة عميقة.. سحيقة، تفصل بيني وبين: هدى، تبعدني عنها يستحيل معها لقاؤنا في أية صورة.

وتقفز إلى ذهني، صورة والدتي وهي منكبة على الغسيل، أو تمسح الأرض فتؤرقني، تعذبني وتذهب عني النوم، فأنا من طبقة لا تستطيع أن ترفع عينيها إلى أعلى، فأمي: خادمة..

ولم تترك والدتي العمل، رغم توسلاتي إليها،

وبأنني مستعد أن ألتحق بعمل ما، وأنني سوف أوفر لها كل شيء، لتدرأ عن نفسها المذلة فكانت تقول:

ـ «لم يحن بعد الوقت لذلك، فأنت صغير، وعودك لا يستحمل الصمود أمام متاعب الحياة».

فأكتفي بالصمت وأسلم بالأمر.

* * *

وفي أحد الأيام قالت هدى وكنا بمفردنا:

ـ «إن ابن عمي تقدم يطلب يدي..»

وأدركت معنى كلامها.. تريد أن تحثني لأقدم على خطوة ما، وبكى قلبي في صمت وتدحرجت قطرات من الدموع.. من الحزن تنفس عما في نفسي، فقلت بضيق وقد اكتست رقعة وجهي بالجمود والذهول:

ـ «أتمنى لك السعادة من كل قلبي..»

كان ابن عمها هذا، متعجرفاً، تافهـاً، مغروراً.. يعتقد بأن المال يمكن أن ينفذ.. أن يتسلل حتى إلى

القلوب التي أضاءها الحب بارتعاشاته وخفقاته العذبة فيخضعها له، كم هو واهم؟!..

زواج مصلحة للحفاظ على الدم.. والمال.

وانتفضت.. انتشلتني من أفكاري واستغراقي، عندما قالت وقد تهدج صوتها:

ـ «ولكن.. ألا يعني ذلك شيئاً بالنسبة إليك؟!»

يا إلهي.. ليتني أقوى، أملك أن أختصر إليها الطريق، فأذيب هذا الجمود الذي يقف حائلاً بين لقائنا، فإن أهلها يريدون أن يغتالوا حبنا وأخيراً، أجبت:

ـ «يعني الكثير، ولكن ماذا أستطيع أن أفعل..»

وضربت كفاً بكف في ضيق.. في تبرم واستطردت في يأس:

ـ «لا شيء.. فإن أهلك لا يستطيعون فهم العلاقة التي تربطنا.. فهذه الفئة من الناس تشعر بأن المال هو

كل شيء في الحياة، وتناسوا رقة الشعور.. العطف، خلجات النفس، فهم يفتقدون مثل هذه الأشياء ويقفون على أرض لا تزرع أو تنبت الورود..»

وقامت: هدى، فلم تستطع أن تقنعني بوجهة نظرها، فأنا أعرف أهلها وعنادهم، وقالت وقد اكتسبت ملامحها صرامة وإصراراً.. تورد وجهها واحتقن:

ـ «سوف أرفض الزواج، حتى مشاعري الخاصة يقفون في طريقها، يفرضون عليّ أن أتصرف فيها بالطريقة التي ترضي أهواءهم..»

فاعتصمت بالصمت وشيعتها بنظراتي الحائرة يعتمل في صدري الألم والحزن فابتلعتهما في صمت..

وفي ذلك اليوم، رجعت والدتي متجهمة الأسارير، تنطق ملامحها بشيء ما، كانت كل حركة وإيماءة منها تفصح عن القلق والارتباك، فجلست بهدوء ولما رأت إطراقي وسكوني قالت في صوت خافت ولكنه قوي:

ـ «يجب أن تنهي علاقتك يا بني بـ: هدى..»

إنها تأمرني، تحسب أني لا زلت صغيراً، عندما كانت تسحبني من يدي وتطوف بي البيوت، فأطيعها، أنقاد لها دون وعي أو إدراك، فأجبت وقد غطت وجهي ظلال من الكآبة:

- «ليتني أستطيع ذلك، فليس الأمر بيدي حقاً..»

كل شيء في هذه الحياة يعد محتملاً مهما كان مؤلماً، إلا أن تمنع قلبك عن الخفقان، لتخنق عاطفة دافئة تسللت إليه، فهذا مستحيل.

كان حبي لـ: هدى عفيفاً، لم تمتد يدي إليها بسوء، فقلبي لا يطاوعني على الإساءة إليها.

وتأملتني طويلاً، وقد شعرت بالتغير الذي طرأ عليّ وبالإصرار على موقفي فقالت في عزم:

- «إذاً يجب ترك هذا البيت.. فنحن رهن أقدارنا فيجب أن لا نتمرد وليس من الكرامة أن نسيء إلى إنسان أكرمنا طيلة هذه السنوات..»

وفي الصباح الباكر، وقبل أن يستيقظ أهـل البيت جمعت ملابسها وغادرنا البيت، ودمعة كبيرة سالت على خـدي وأنـا أسيـر بجـوارهـا يعصف بنفسي اليـأس والحرمان . .

بنغازي ـ 11/ 7/ 1966 م

(*) نشرت في مجلة «الرواد»، العدد رقم (4)، 1966 م.

الغروب

ذرفت السماء دموعها الكبيرة، فانسكبت على ذلك الطريق الطويل فغدا لامعاً تحت أضواء الشارع الباهتة، فوفقت إلى حد ما في تبديد الظلام الذي لف الكون بغلالته السوداء القاتمة. .

وكان الهدوء يسيطر على ذلك البيت ويلفه برداء لصمت العميق وقطرات المطر تدق الأبواب والنوافذ بكل قوة، فاتجهت أسماء إلى غرفة والدتها وقلبها منقبض، تتسارع خفقاته، وقد شعرت بأن شيئاً ما سوف يتقرر في هذه اللحظة الحرجة من حياتها. . إحساس

مبهم. . غامض أوحت به هذه الزيارات المتكررة والهمسات، وأحست بأنها طرف رئيسي في هذا الموضوع. .

ودخلت على والدتها، وهي تفرك يديها من شدة البرد، لا تكاد تتمالك نفساً من ارتعاشة أطرافها وقد احتقن وجهها.

ولما جلست بجانب والدتها، تطلعت إليها أسماء بنظرات متسائلة بالحيرة، فتجاهلت والدتها هذه النظرات الضارعة، وبدت عليها مظاهر الحيرة ودلائل الارتباك، فهي لا تعرف كيف تتطرق إلى الموضوع، وأخيراً قالت وقد شردت نظراتها بعيداً:

ـ «لقد طلب يدك: حسن، فما قولك؟!»

ولزمت أسماء الصمت، وقد تحقق حدسها، وشعرت كأنها في دوامة ولم تصدق ما سمعته منذ لحظة، فقطبت جبينها وأخيراً قالت وقد انفجرت ثورتها الكامنة في أعماقها:

ـ «طبعاً أرفض، وأعتقد أنك معي، أليس كذلك!!»

فانتزعت والدتها ابتسامة باهتة.. صفراء، وقالت وهي تربت على كتف ابنتها في حنان:

ـ «ليس أمامنا طريق آخر، فنحن فقراء، وهذا الزواج ينقذنا من هذه الحياة التي نفتقر فيها إلى الاطمئنان..»

وشعرت أسماء، كأن مدْية قد أغمدت في قلبها البكر، فتقتل عواطفها.. إحساساتها الشابة التي تربت.. ترعرعت في قلبها فاحتضنتها بكل لهفة وشوق وأخذت تكبر معها يوماً بعد يوم..

إنّه زواج مصلحة، كأنها سلعة، فلا دخل لها بالعواطف.. سلعة يتداولها من يدفع أكثر، وأحست بخيبة أمل كبيرة فنزلت الدموع من عينيها حارة تجري في صمت على أديم وجهها، وقالت في لهجة حازمة:

ـ «هل يتحتم عليّ في سبيل المال، أن أضحي بشبابي، فأقبره مع هذا العجوز، مع أني في عمر ابنته، إنّه ربما في حاجة إلى ممرضة أكثر من حاجته إلى

زوجة.. إنني أريد.. أتمنى، زوجاً أبني معه حياتنا المشتركة، حيث يظللنا الحب.. يملأ حياتنا دفئاً وحناناً..».

وقاطعتها والدتها في استعطاف:

- «صحيح، ولكن لا تكوني أنانية، فيجب أن تفكري في مصيرنا نحن فالفقر يحطم الإنسان يا صغيرتي».

والتقطت والدتها أنفاسها ثم استطردت:

- «.. ثم إن والدك عاطل عن العمل - كما تعرفين - وقد أعطى الموافقة على زواجك، فلا فائدة من المعارضة الآن..»

ونهضت: أسماء في إعياء وتثاقل، وأحست كأنها تحمل فوق كتفيها حملاً ثقيلاً وقالت:

- «أنا رهن مشيئتكم..»

وابتسمت والدتها وردت:

ـ «هكذا تكون الابنة المطيعة»

واقتربت منها لتحتضنها فأبعدتها: أسماء عنها في حركة عصبية وغادرت الحجرة مسرعة وصفقت الباب وراءها بكل قوة.

ولما احتواها الفراش، تمددت عليه، واحتضنت وسادتها وبللتها بالدموع.

ولم تنم تلك الليلة، وقد توالت عليها الذكريات، كم كانت تتمنى لو أنها تزوجت بحبيبها: أحمد، جارهم، فقد ربط بينهما الحب منذ ثلاث سنوات..

كان دوماً يرافقها بقامته الرشيقة في ذهابها وإيابها من المدرسة، وفي خلال هذه اللقاءات حدث الشيء الكثير، خاصة عندما يكون الشارع خالياً من المارة وقت الظهيرة، يقترب منها في هدوء وتتلاقى نظراتهما.. تتعانق في لهفة وشوق فيتبادلان الحديث.. النجوى في همس عن المستقبل وأحلامهما معاً، وقد جمعهما بيت واحد، وتشعر بمنتهى السعادة، وتتمنى.. تتعجل ذلك اليوم..

غير أن أحمد كان فقيراً معدماً، فلا يستطيع أن يتقدم لزواجها في الوقت الحاضر، فهو يوفر، يقتر على نفسه، لكي يحقق هذه الأمنية ولتغدو الوشائج التي تربطه بـ : أسماء، أكثر قوة وعمقاً. .

وعندما انقطعت أسماء، عن الذهاب إلى المدرسة كان: أحمد قلقاً، تتنازعه الهواجس والأفكار السوداء، وما انفك قلبه. . يخفق في قوة وعنف. . فكان يحوم حول البيت في المساء ويظل هكذا إلى أن يتقدم الليل. . يكتهل ولا أثر يبدو لـ : أسماء، وخشي أن تكون مريضة، ولكنه نفى هذه الفكرة وهي الحريصة على مواصلة دراستها حتى في حالات المرض، فهي تبذل مجهوداً كبيراً ـ كما قالت له في أحد الأيام ـ لأن تكون شيئاً ما لتخدم قضية المرأة، تجند لها نفسها، متسلحة بالعلم والفضيلة بعيداً عن المقالات والخطب الرنانة التي زادت من تعقيد هذه القضية. .

وفي إحدى الليالي المظلمة، وكان المطر منهمراً وقف أحمد قريباً من بيتها، يعمر قلبه الأمل في

رؤيتها، وقد بلغ به اليأس مداه شعر بأن أحد الشبابيك قد انفتح في هدوء وحذر وأطل منه رأس صغير سبقته ضفيرتان وسمع صوتاً يناديه في همس فاتجه إليه بخطوات حذرة وما إن اقترب من النافذة حتى تحددت له ملامح أسماء، فأقبل عليها في لهفة وأخذ وجهها بين راحتيه، ودعكه ببطء فلم تبدر منها حركة ما وأخيراً قال وقد أضاء وجهه بشر وسعادة ولهفة:

ـ «لقد قلقت عليك وخشيت أن تكوني مريضة..»

فأغمضت عينيها وتمنت أن تكون فعلاً مريضة ـ وحتى أن تموت ـ ولا أن تتزوج هذا العجوز، وأظلمت الدنيا في وجهها وشعرت بألم.. بعذاب يمزق أحشاءها، ولم تتمالك نفسها فانهمرت دموعها..

ولما لاحظ أحمد، ذلك امتقع وجهه، فاقترب منها وقال في اضطراب وأطرافه ترتعش:

ـ «ماذا بك..»

فردت وهي تمسح دموعها:

ـ «لقد حالوا بيننا.. فقد تمت خطبتي منذ أسبوع لجارنا: حسن الغني..»

وصعق أحمد وقد أخذته المفاجأة وأطلق زفرة حارة وقال:

ـ «يا إلهي.. المال هذا الشيطان الذي يستولي على القلوب الضعيفة فيخضعها له، وأخيراً نكتشف في النهاية أننا ضحية شيء تافه».

وقالت أسماء في استسلام:

ـ «يجب أن نخضع للأمر الواقع..»

ولما شعرت بدبيب خطوات قالت وهي تحاول إقفال النافذة:

ـ «يجب أن ننسى أنه كان لنا يوماً ما حباً..»

واعتصمت بالصمت قليلاً ثم استطردت في خوف:

ـ «لقد جاءت والدتي»

فابتعد أحمد، ومضى يدق الأرض في خطوات واهنة

وقد حطمه اليأس. . دمر أحلامه السعيدة. .

ولما دخلت والدتها الحجرة قالت:

ـ «ماذا هناك، لم أنت شاحبة الوجه».

فأشاحت أسماء، بوجهها إلى الناحية الأخرى لكي لا تلاحظ والدتها دموعها:

ـ «لقد سمعت ارتطام النافذة، فجئت لأحكم إغلاقها. .»

ـ «حسناً فعلت».

ثم انصرفت والدتها، لا تلوي على شيء، ورجعت أسماء لتلقي بنفسها. . تنام في فراشها دون أن يطرق النوم أجفانها، وهي تتمنى لو ينهار هذا الجسر الممتد في حياة مجتمعها، الذي يرضخ لتقاليد عمياء دون أن يناقشها أو يستوعبها وقالت تخاطب نفسها: إننا في حاجة إلى إرساء تقاليد وعادات جديدة تكون متفقة. . متمشية جنباً إلى جنب مع حياتنا المعاصرة، فنحن ضحية هذه التقاليد، العمياء. .

وتزوجت أسماء، وشعرت كأنها تزف إلى قبرها بعد أن وأدت عاطفتها، حبها.. وساءلت نفسها في حيرة: هل يتوجب علي أن أغلق قلبي عن الحب لمجرد أنني فقيرة؟

وشعرت بخيبة أمل كبيرة وتقززت نفسها.. عافت هذا الزوج المريض، وترى أنها قد امتهنت في أنوثتها وكرامتها وهو ينالها ـ رغماً عنها ـ خيانة وغدراً ويستمتع بشبابها، على أنها تعيش معه جسداً بلا قلب.. فإن عواطفها ملك لأحمد..

وعندما تلتقي نظراتها بالمرآة عفواً، تقف برهة تتأمل نفسها.. شبابها الغض الذي تعكسه تلك المرآة بكل تقاطيعه ومفاتنه، فتبرز لها استدارة نهديها وبياض بشرتها واعتدال قامتها، ثم تهتز هذه الصورة فترى بعين الخيال صورة حبيبها أحمد على صفحة المرآة فتهز رأسها وهي غير مصدقة ثم تقترب منها في بطء وحذر وكأنها تخشى أن تهرب هذه الصورة الجميلة فتلامس صفحة المرآة الملساء فتختفي الصورة..

وعندما تفيق من أحلامها وتخيلاتها تهرع إلى الوسادة تحتضنها وهي تعتقد أنها، تعانق في أحضانها أحمد، فتبللها بالدموع وقد أحست.. شعرت بأن حبها قد جنح إلى الغروب..

بنغازي - 26/ 8/ 1966 م

(*) نشرت في مجلة «الرواد» العدد رقم (4) 1966 م.

سنرجع غداً

وقفت أتابع بنظري ذلك الخط الطويل من الأسلاك.. تلك الأسلاك البغيضة إلى قلبي، والتي تفصل بيني وبين موطني، والتي لا تبعد سوى بضع خطوات، وراودني أمل حي في الرجوع إليها، مهما كان الثمن..

ولم أستطع أن أتابع النظر، فقد شعرت بشيء كأنه الغمامة تغطي عيني وأصبحت المرئيات أمامي صورة مهزوزة لا أراها على حقيقتها، ثم اندفع سيل حار متدفق وشق طريقه على أديم وجهي فرفعت يداً واهنة ومسحت تلك الدموع..

وكان صديقي: إبراهيم واقفاً بجانبي، ولما رأى حالتي تلك واستغراقي الطويل احترم تلك اللحظة التي أعيشها بكل وجداني، فلم يحاول أن يتفوه بكلمة ما فإنه يعرفني ويفهمني جيداً.

وكنت أشعر بقوة قاهرة تشدني إلى هذه الأرض الطيبة، التي احتضنتني صغيراً ورعتني شاباً ثم رجلاً.

وها هي اليوم قد حيل بيني وبينها، على مرأى ومسمع من الضمير الإنساني الذي لم يحرك ساكناً، ليفعل أي شيء من أجلي، وليدفع الظلم عني، ألا تباً لهم، فليذهبوا إلى الجحيم، ولكن مع هذا فإن روح الكفاح في شعبي لن تقهر، أبداً، فإنها تعيش في تلك الأراضي كل لحظة..

وأخذت أملأ عيني بجمال تلك الأرض، التي تفيأت في ظلالها وعشت فوقها أجمل سنوات طفولتي وشبابي، وكأني أحكي لها قصتي الحزينة المؤلمة وأهلي االمشردين، في خيام في صحراء واسعة،

تحرقهم الشمس، تشوي أجسادهم الضامرة، صيفاً، أما في الشتاء، فيلفحهم البرد فينفذ إلى عظامهم كوخز الإبر ولا تستر أجسادهم إلا ملابس رثة، والوجوه البريئة الشاحبة تطالعني أنى كنت فتزيدني ألماً وانقباضاً وتشعل في نفسي الإصرار على مواصلة الكفاح..

ـ «آه.. حتى الطبيعة قست عليهم، فماذا يفعلون؟ غير أنهم يؤمنون بعدالة السماء».

وران علينا الصمت، ثم قطعته فجأة بقولي مخاطباً صديقي:

ـ «إبراهيم، أنظر بالله إلى هؤلاء الأوغاد الذين يمرحون على أرضنا وأشعر كأن خطواتهم هذه على قلبي، تخنق أنفاسي..»

ونظر: إبراهيم إلى حيثما أشرت فألفى ظل خمسة يهود، وهم في دورية يعكس ظلهم الغروب يحملون في أيديهم مدافع سريعة الطلقات ويقفون بجوار الأسلاك ثم قال:

- «مهلاً. . مهلاً، فلن ينتزع منكم هذه الأرض غيرنا، وسنطردكم، فأنتم دوماً شعب مشرد لا وطن له، فإننا نعيش على أمل. . أمل وانتظار ذلك اليوم القريب».

- «كم رافقنا هذه الشمس في مغربها، ونحن ننظر إلى قرصها الأحمر وكأنه شعلة متوهجة، عندما نرجع وقطيع الغنم يسير أمامنا في هدوء ودعة. . ».

وقطع عليّ: إبراهيم، أفكاري حينما قال وقد سحر هو الآخر، بروعة ذلك المنظر لاقترانه بذكرى عزيزة عليه لم تطمسها الأيام:

- «ما كان أجملها من أيام يا صديقي. . ولكن ستعود يوماً كأجمل ما تكون فإن النكبة خلقت منا رجالاً، فها هي فلسطين تهيب بنا، تنادينا أن ننقذها فالأرض لم تعد تحتمل أقدام هؤلاء الغرباء. . »

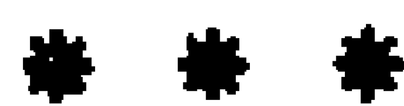
وسكت فجأة وقد أرهفنا السمع وخيّل إلينا أننا نسمع حركة ما، فأطلقت زفرة حارة واستطردت في حماسة:

ـ «. . بأي حق نطرد من بلادنا، ومن ربوعها الطيبة، فلم يفكر هؤلاء الطغاة في الحالة التي سوف نؤول إليها وانحصر تفكيرهم من أجل هؤلاء اليهود على أشلائنا وسعادتنا وكأننا لا نحمل قلوباً حية نابضة بالحياة والشعور، ونفوساً تؤمن بالكرامة الإنسانية والحرية. . »

فرد إبراهيم في عبارة مؤثرة وهو يكاد يغرق في بحر من دموعه:

ـ «والغريب في الأمر أن شعوب العالم لم تتحرك قيد شعرة، فإن هذه الجريمة تأباها النفس البشرية الحرة الشريفة. . وألقوا بحقوق الإنسان إلى قاع البحر. . »

ثم أحنيت قامتي، وانتزعت من الأرض حفنة من التراب الأحمر وأخذت أمرر عليها يدي برفق بالغ. . في حنان، ثم دفنت وجهي فيها وأحسست أنه تنبعث منها رائحة طيبة. .



وعادت بي الذاكرة إلى الوراء.. عندما كنت طفلاً صغيراً، أعود في المساء وقد تلطخت ثيابي بهذا التراب، ثم أهلي يوسعونني ضرباً على قذارتي.. ومضت في نفسي أمنية، في أن تعود تلك الأيام الخوالي، إني سأشعر عندئذ بسعادة لا نهاية لها، وارتسمت على ثغري ابتسامة خفيفة..

كانت صرخات الثأر تزأر في نفسي، تتمرد عليّ، وأنتظر الفرصة لكي أنتشل وطني من دنس اليهود ولأشارك بكل تواضع في إعادة الابتسامة إلى تلك الوجوه الشاحبة، التي لم تعرفها قط، إنما يبدو على صفحة وجهها خيط رفيع من الحزن الدفين لم تنطفىء جذوته رغم السنين.. ذلك الحزن الذي غلف كل شيء..

وتواردت على ذهني ذكريات الماضي من جديد حيث كنت أرجع مع قطيع غنمي أحاذي الشمس ثم أهرع إلى حبيبتي، الجالسة تحت ظلال شجرة التوت الكبيرة..

آه.. إني ملأت ساقها كتابة ورسمت عليها صوراً ساذجة كحبنا..

وقطع عليَّ تفكيري أزيز رصاصة مزقت السكون، فجذبت إبراهيم من ذراعه وانبطحنا على الأرض، ومرت فترة قصيرة من الزمن، فترة ثقيلة الوطأة، لم يكن يتردد خلالها إلا أنفاسنا الخافتة وأخيراً، رأينا أشباحاً انبثقت من أحشاء الظلام وهي تبتعد مسرعة الخطى فتمتمت في همس:

- «إبراهيم..»

فرد رفيقي في صوت خافت كأنّه حشرجة الموت:

- «نعم.. ماذا هناك؟!»

- «اتبعني فقط، حتى نجتاز هذه الأسلاك، قبل أن تعود هذه الدورية من جديد، وتقتفي أثرنا، أما الآن فيجب أن نتخذ طريقاً لنا ذلك الدرب الصغير حتى لا يهتدون إلينا..»

ثم استطردت وأنا أبث الشجاعة في نفس صديقي:

ـ «لا تخف شيئاً، فإنني ـ كما تعرف ـ أخبر هذه الطريق جيداً، فقد نظرت عيناي إلى هذه المواقع طيلة عشرين عاماً. .»

ـ «لم أكن خائفاً، إنما أريد أن أكون على حذر حتى لا تبدر مني حركة ما ترشد العدو إلى مكمننا، وتفسد علينا الخطة التي جئنا من أجلها. .»

فقلت وأنا أضغط على الكلمات في إصرار:

ـ «كل شيء سيتم بنجاح بإذن الله ولا تنقصنا الثقة في ذلك. .»

ـ «أجل يا صديقي، فإننا وإن كنا نضع رؤوسنا فوق أكفنا، إلا أننا نلقي الذعر والخوف في قلوبهم».

وبعد أن ألقى الهدوء رداءه من جديد تسللنا تحت جنح الظلام وتوغلنا في الأراضي المحتلة وفجأة انسكبت علينا الأضواء الكاشفة فأحالت الليل إلى نهار. . ولم نقم بحركة ما، إنما انبطحنا على الأرض في سرعة وقد صعقتنا المفاجأة، وشعرنا بالارتباك، وتلفت

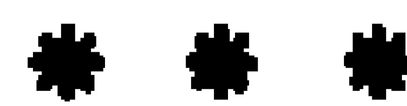
حولي في ذعر ووجل، وقد أدهشتني هذه المفاجأة، وألفيت نفسي قريباً من المكان الذي نقصده ولما أدرت عنقي إلى الناحية الأخرى رأيت سوراً قصيراً فاحتميت به ولما همست باسم صديقي إبراهيم ضاعت همستي فقد رأيته يعدو مسرعاً ورأيت أيضاً رصاص العدو يحاصره من كل جانب.. يطوقه ثم سمعت صرخة قوية وصوت جسم يرتطم بالأرض..

ووجمت، وعرفت مقدار التضحية التي أقدم عليها إبراهيم. كان يريد أن يشغل عني العدو حتى تنحصر المطاردة في شخصه، ولا أقع أنا في أيدي العدو لأنجز المهمة التي بعثني القائد من أجلها.. فقد كان يعول على نجاحها أهمية خاصة..

ومطيت شفتي وقد تولاني شعور بالأسى وقلت أحدث نفسي: وأي شيء في هذا، ألم يكن: إبراهيم يود أن يموت شهيداً في سبيل هذه القضية وقد كلفته حياته وسوف لن يكون الأخير حتى تتحرر فلسطين..

ثم عاد كل شيء إلى ما كان عليه، وقفزت إلى السور، بخفة واسترحت عليه ريثما هدأت الضجة، ولما غرق كل شيء في لجة من السكون هبطت وواصلت سيري في حذر.

ولما وصلت إلى المستعمرة التي أقصدها تلكأت في السير وأخذت أزحف على بطني بكل حذر وحيطة حتى وصلت إلى مستودعات النفط وكان الظلام يحيط بها فوضعت بالقرب منها قنابل يدوية. .



كنت وإبراهيم صديقين منذ الطفولة السعيدة، ومنذ ذلك التاريخ لم نفترق وتدرجنا في موكب الحياة حتى حلت بنا النكبة، ولما شببنا عن الطوق وعشنا مرارة المأساة عاهدنا الله أن ننتزع الوطن من العدو الذي يمرح فيه مهما كان الثمن. .

وتحقيقاً لهذه الرغبة الجياشة، فقد انخرطنا في سلك الفدائيين. وهو وإن كان عملاً يعد فردياً إلا أنه يبث

روح الطمأنينة في نفس شعبي بأننا لم ننس فلسطين.

واتجهت إليَّ الأنظار ـ بصفة خاصة ـ وعلقت بي الآمال، لأقوم بهذه المهمة التي يكتنفها الخطر لخبرتي الطويلة في الأعمال الفدائية وقلت في نفسي: النصر أو الموت..

واستطردت أحدث نفسي: لا بد أن أعود إلى وطني، فإنه ينتظر مني الكثير من التضحيات لكي أعيد الإشراق إلى وجوه مواطني..

وعندما رجعت وقد أنجزت مهمتي بنجاح، ألفيت نفسي في مكاني السابق وكان صديقي إبراهيم غارقاً في دمائه، فجثوت على ركبتي، ونزعت عنه معطفه وغطيت به جسده ثم حملته بين يدي وقبلته في جبينه وسرت به في خطوات وئيدة ويخيل إليَّ أنني أرى ابتسامة على ثغره، فانحدرت من مقلتي دمعة حارة..

واحتضنته بكل قوة وأنا أردد وأشعر بأنه يسمعني:

طب نفساً يا صديقي فإني سوف أثأر لك قريباً.

وبينما أنا أسير بعد أن اجتزت الأسلاك سمعت انفجار تلك المستودعات وقد اندلعت فيها النيران فأحالت الليل إلى شعلة متوهجة كبيرة أخذت ترتفع إلى السماء مختلطة مع الدخان، ثم أخذت الشظايا تتطاير من المستودعات ومن ثم تناثرت في أرجاء المكان..

ولاحظت أن الأنوار الكاشفة قد أضيئة من جديد، ودبت حركة غير عادية في تلك المستعمرة وكانت خطوات جنود العدو تذرع الطريق في عجلة وارتباك..

وعاودت نفسي الطمأنينة، وكللت مهمتي بالنجاح، ورمقت صديقي الراحل بنظرة معبرة تحمل في طياتها الفخر والاعتزاز فإنني مدين له بحياتي وبنجاحي في مهمتي أيضاً..

ولما رأيت قريتي، غذيت السير وأنا أقول في ثقة وابتسامة عريضة وضاءة تزين وجهي الأسمر وخيل إليَّ أنني أسمع أصواتاً آتية من بعيد وملايين من الناس

الشرفاء تردد معي أناشيد النصر والظفر: سنرجع غداً، أجل سنرجع غداً..

بنغازي - 15/ 5/ 1960 م

(*) نشرت في مجلة «ليبيا الحديثة» بتاريخ 1967/7/10 م.

الجسد الصغير

كنت صياداً فقيراً يقبع كوخي بمحاذاة الشاطىء.. اخرج في الصباح الباكر عندما تأخذ الشمس طريقها إلى الارتفاع في أفق السماء، فتنشـر الدفـء وتـزيل بحرارتها ذلك الضباب الـذي يحجب وجه السمـاء، فأقضي سحابة اليوم بين البحر بزرقته الشديدة وأمواجه البيضاء، التي تهدر في قوة وإصرار ثم تتطاير رغواتها وكأنها فقاقيع صابون والسماء الصافية من فوقي، تبدو على رقعتها الكبيرة سحب بيضاء خفيفة..

وعندما يلقي الصيـادون بالمفـرقعات، تتجمـع في

الأفق أسراب من طيور البحر تعلو سطح المـاء، ثم تهبط عندما تلمع سمكة تطفو على وجه الماء فتنقض عليها ثم تطير في الجو مرة أخرى وتأخذ في الابتعاد بصيدها الثمين.

وعند الغسق، حينما يبدأ الليل في نسـج خيوطـه السوداء أرجع وسلتي القديمة محملة بما أنتزعـه من البحر. .

لم تكن حياتي موفقة إلى حد ما. . فكنت في معظم الأحيان ـ وخاصة في فصل الشتاء ـ أمكث في البيت، حينما يكون البحر ثائراً. . تزمجر أمواجه العاليـة في قوة، فلا أستطيع أن أفعل شيئاً.

والمحصول ليس في مستوى واحد، فأحياناً أرجع صفر اليدين وأحياناً أخرى يغدق عليّ البحر من خيراته الكثير، وفي هذه الحالة آخذ طريقي نحو السوق حيث أبيعه هنالـك، وأعود وقـد استخفني الطرب، مسـرع الخطى وفي سلتي بعض الأشياء من المدينة.

وفي البيت تلقاني زوجتي الطيبة بابتسامة كبيرة، ومن ثم تدب الحياة في أوصال الأسرة الصغيرة، فنذوق الطعام الجيد، وأمنح ابني الوحيد بعض النقود القليلة ونمضي سحابة النهار في سعادة وحبور.

وفي المساء، نجتمع حول موقد النار، نستدفىء به ونروي الحكايات الساذجة البسيطة والسعادة والرضا مرتسمان على وجوهنا حتى يكتهل الليل فنأوي إلى مضاجعنا.

أما في الأيام التي يبخل عليّ فيها البحر، أرجع خائباً، منكسر النفس والخاطر وفي يميني شبكة الصيد مجرجراً أقدامي الثقيلة على تلك الرمال الصفراء، فتترك آثاراً كبيرة كالتجاعيد، ولما يحتويني الكوخ ألقي بهذه الشبكة في أول زاوية وأجلس القرفصاء عابس الوجه متجهم الأسارير.

هكذا كانت حياتي وحياة أسرتي الفقيرة، نعيش يوماً أو يومين في سعادة ثم يلازمنا سوء الطالع بقية الأيام الأخرى، فنقضيها في تعاسة وننام وبطوننا خاوية.

وفي مثل هذه الحالات تدخل عليَّ زوجتي وتراني أفكر ويدي على خدي الشاحب أفكر في مصيرنا فتبادرني قائلة لتخفف عني وطأة الشعور الذي أعانيه:

ـ «لا تفكر يا محمد، فإن التفكير لا يفيد شيئاً».

ـ «أنا أعرف ذلك ولكن ماذا أفعل..»

ـ «لا تيأس..»

فأقول بعد نفاد صبري:

ـ «لا تيأس.. أنت لا تملكين إلا هذه الكلمة، اتركيني وشأني وسأتدبر الأمر فإني لست في حاجة إلى المزيد..»

وكنت أحمل في نفسي طاقة هائلة من التشاؤم لم تزلها الأيام.. طاقة جعلتني أرقب الحياة بذلك المنظار الكثيف من السواد، وأشعر بأنني ضحية..

وفي هذه الأثناء يكون ابني حامد، واقفاً وسط الكوخ قرب شجرة اللوز العجوز، يسترق إلينا السمع ثم يتطلع

إلينا بوجهه الأسمر الشاحب تكاد تطفر من عينيه الدموع، فأهرع إليه وأحتضنه فيدفن رأسه الصغير في صدري، ويقول في صدق وبراءة نعجز عن التعبير عنها نحن الكبار:

ـ «ماذا فعلتِ أمي؟»

فأنقل بصري بينه وبين والدته وأقول بعد فترة وتردد:

ـ «لا شيء.. لا شيء يا بني..»

عند ذلك أشعر كأن الأرض تميد تحت قدميّ.. من أجل هذا الصغير الوسيم فأنا وزوجتي نستطيع الصبر، ولكن ابني ماذا أستطيع أن أعمل من أجله، فهو بعقليته البسيطة لا يستطيع أن يرقى إلى مستوى الحياة التي نعيشها، وأقول في نفسي: ترى ماذا تخبىء له الأيام، وكنت أشعر بأن حياتي قد أصبحت لها قيمة، فما أجمل أن يشعر الإنسان بأن شخصاً ما ينتظره، ويعده كل شيء بالنسبة إليه، ثم تتراخى يداي من حوله فينصرف في هدوء وعوده الغض يرتجف من البرد، ولمّا

يولينا ظهره تشفعه والدته بنظرة ترشح بالحنان والحب وتقول:

- «إنّه لا يملك غير هذا الثوب الذي يرتديه..»

وعندما نطقت بهذه العبارة ردتني إلى وعيي وأفقت من تفكيري فقلت لها:

- «ولكن ما حيلتي في ذلك.. إنك أدرى بحالتنا الراهنة..»

- «أدري ولكن..»

فقاطعتها بحدة وانفعال:

- «ولكن ماذا.. تكلمي..»

فخفضت من بصرها، ثم واصلت حديثي مبدياً اعتذاري وأسفي:

- «لم أكن أقصد جرح شعورك، أقسم لك، ولكن هنالك أشياء تجعل المرء يتصرف تصرفاً صبيانياً، ويخيل إليّ أن الحياة قد أورثتني كل متاعبها وآلامها..»

وجال بفكري، كم تحملت هذه المرأة من أجلي؟ كم تألمت ولم تتركني رغم حياة الفقر التي نعيشها، ولم تتمرد؟ وأخيراً قالت:

ـ «هناك سواري الوحيد الذي ورثته عن أمي».

ـ «ماذا أفعل به؟!»

ـ «بعه»

ـ «إنّه لا يساوي شيئاً يذكر».

ـ لا مفر من بيعه فهذا هو الحل الوحيد»

فأطرقت إلى الأرض مفكراً ثم قلت:

ـ «إذاً أين هو، فلم يعد هناك مفر، خاصة وأن الشتاء على الأبواب..»

ونهضت بقامتها القصيرة، فبان جسدها من خلال ثقوب ثوبها، واتجهت إلى صندوق خشبي قابع في إحدى زوايا الكوخ، وقد تآكلت أطرافه.. تهرأت فبهت

لونه الأخضر ـ ويدلك على أنه شهد الليلة الأولى من الزفاف ـ وكان الزنك الأصفر الرقيق اللامع منزوعاً عنه بفعل الزمن، فبدا مكانه الخالي أبيض ثم رفعت غطاءه وأسندته برأسها، ومدت يدها اليمنى والتقطت بأناملها المرتعشة السوار وما إن أتمت ذلك حتى سحبت رأسها فجأة وبشيء من اللامبالاة فهوى الغطاء بشدة وأحدث صوتاً قوياً ارتجت له أركان الكوخ. . ثم مدت إليَّ به، ولما تطلعت إلى وجهها رأيت دمعة كبيرة تحاول. . تجاهد في أن تخفيها، تداريها فلم تفلح، وأخيراً مسحتها بظاهر يدها. .

كان ذلك المنظر قاسياً، رهيباً، لم أنسه قط، والصمت يلف المكان بردائه الثقيل، فقطعته بصوت واهن وأنا أزدرد ريقي في عسر وصعوبة:

ـ «أليس هذا ما تريدينه؟!»

ـ «لم يكن لنا بد من ذلك. .»

ثم خرجت في خطوات واهنة احمل ساقي في بلادة

وتكاسل، وكان الجو جميلاً، وريح خفيفة تلامس الوجوه. . تصافحها، واتجهت صوب السوق. . لأبيع أعز قطعة تمتلكها زوجتي، وقلت في نفسي: كم من محنة قاسية مرت بنا، فلم نحاول أن نمد إليه أيدينا، وكنا ننظر إليه على أنّه شيء له قيمة كبيرة، تقدسها زوجتي.

وعندما احتواني السوق، شققت طريقي بصعوبة بين جمع من الناس وكان الضجيج صاخباً، فطغى على كل شيء، والمحلات ملأى بأشياء كثيرة لا تمس الحاجة إليها، في حين أن هنالك من لا يملك قطعة قماش يستتر بها، إلا أن زحام السوق انتشلني من وهدة هذه الأفكار، وهنالك والعرق يتصبب من جبيني عرضت السوار على أحد التجار فأخذه في يده وقلبه على كافة وجوهه وتعلقت أنظاري به ولما أخبرته عن ثمنه قال:

ـ «إن سعره غالٍ. .»

وعندما أعرضه على آخر يقول:

ـ «لست في حاجة إليه الآن، فالدكان كما ترى لا يستوعب شيئاً جديداً. .»

وهكذا كان شأن هذا السوار، فلما لم أر فائدة رجعت به، وفي الطريق كنت أتخيل الصورة التي سألقى بها زوجتي، وأحاول عبثاً أن أبعد صورة هذا اللقاء من ذهني غير أنها كانت تفرض نفسها عليَّ، وأخيراً وصلت الكوخ، ولما توسطته رأت زوجتي السوار في يدي ملفوفاً في ورقة صفراء فهتفت وهي تحاول جاهدة إخفاء دهشتها وخيبة أملها:

- «ماذا حدث؟»

- «لا شيء، فإنني لم أرتض بيعه..»

فتساءلت وقد حسبت أني لم أذهب به إلى السوق، لأنها تعرف ما لهذا السوار من قيمة عندي:

- «لماذا؟»

- «أعطى سعراً رخيصاً جداً..»

- «ما حيلتنا نحن الفقراء، عندما نجد أن كل الأبواب مقفولة في وجوهنا..»

وفي حركة اللامبالاة أخذت مني السوار والامتعاض يلوّن قسماتها ورمت به في مكانه بالصندوق، ولما عادت رأيت بقايا دموع في عينيها، دموع صامتة بليغة، وشعرت نحوها بالعطف والرثاء، ولما لم أقو على تحمل هذا الموقف خرجت إلى الشارع، فإنني أشعر بالضعف الشديد عندما أرى إنساناً ما يبكي . .

وعندما رجعت في الليل، كانت الظلمة تخيم على المكان، وضوء خافت ينبعث من بعيد يجاهد في طرد فلول الظلام، فيعكس أضواءً باهتة على أديم الطريق المبتل بمياه الأمطار، فبدا لامعاً، ونجوم صغيرة تلمع في السماء، كان كل شيء غارقاً في لجة من السكون، يجعلك تسمع اصطفاق أوراق الأشجار وقد تلاعبت بها الرياح وانقشعت تلك السحب السوداء المتوعدة، فأطل القمر بين ثناياها باعثاً على الكون أشعته الفضية، فبدد تلك الظلمة قليلاً ـ دخلت الكوخ ثم انطرحت على فراش القش البالي، فكنت أتقلب وأتملق النوم حتى انتصف الليل أو كاد، فقد كانت صورتي في السوق تقفز إلى ذهني

فتبعد النوم عني، وأخيراً طرق الكرى أجفاني فاستسلمت له.

وسار بي زورق الحياة، في بحر متلاطم، فكنت أصارع الأمواج في بسالة وقوة، حتى كدت أهلك لأن الحبل الذي يربطني بالحياة كان رثاً وخشيت أن ينقطع فجأة..

* * *

إلى أن كان يوم..

يوم كئيب، لزم فيه ابني حامد الفراش، ورسم المرض والسقم على تقاطيعه الحلوة خطوطاً عريضة صفراء، فغارت عيناه، واضمحل جسده، فجن جنوني، ولم يهدأ لي قرار، كنت طوال اليوم أذرع الكوخ جيئة وذهاباً، ويداي خلف ظهري ورأسي إلى الأرض وكأني أبحث عن شيء مفقود.. ثم أرفع بصري إليه فأراه مسجى يتقلب على فراشه ومع كل آهة وأنّة يرسلها تتقطع نفسي لها، تتمزق، ويرنو إليّ بنظرة واهنة سقيمة فتنفذ نظراته إلى

أعماقي تزلزل تجلدي وصبري، فأمسح دموعي وأهرع إليه أحتضنه وأوسعه تقبيلاً، ووالدته جاثمة عند أقدامه ككلب ذليل يتمسح بسيده.. وأشعر بأن الحياة الغادرة تريد أن تنتزع مني أغلى شيء في حياتي..

ولم نذق النوم طيلة أيام مرضه، كنا نتبادل السهر عليه ونحن جاثمين عند رأسه فكانت آثار السهر بادية على وجوهنا في دوائر سوداء فأردد، بيني وبين نفسي: إن فلذة كبدي يتعذب.. يتألم أمامي ولا أملك له عملاً لأني فقير.

وفي كل يوم يمر، كانت وطأة المرض تشتد عليه.. وكنا في بادىء الأمر نخاله مصاباً ببرد بسيط لا يلبث أن يزول، وفي أحد الأيام قالت لي زوجتي في توسل:

ـ «خذ السوار وبعه بأي ثمن.. أي ثمن حتى نتمكن من حمله للطبيب..»

ـ «الأعمار بيد الله..»

ـ «صحيح، ولكن ليس في وسعنا أكثر من ذلك».

ـ «ولكن هل يفي ثمن السوار العلاج والدواء. .»

ـ «لنعمل أي شيء، خير من تركه هكذا يموت بين أيدينا ثم نندم. .»

وتناولت منها السوار في صمت، ولما خرجت جعلت أخاطب نفسي: ألم يكن هذا عين الصواب، فلا مندوحة من ذلك. .

ووصلت إلى السوق فاجتذبتني حركته الدائبة، ونظراتي التائهة لا تستقر على شيء معين، ألقي عليها نظرات ذليلة حائرة، واندسست بين الناس واتجهت فوراً إلى أحد المحلات فعرضت على صاحبه السوار فقلبه بين يديه ثم أعطاه لي دون أن يتفوه بكلمة ما فخرجت من عنده وأنا يائس ألعنه، في سري، وما كدت أسير بضع خطوات حتى رأيت التاجر نفسه مهرولاً ورائي ثم جذبني من كتفي وقال:

ـ «هات السوار. .»

ـ «سبحان مغير الأحوال. .»

كانت لهجته جافة، فأعطيته له وتبعته في صمت وأنا مندهش وما إن وصل إلى متجره حتى اتجه إلى أحد الأدراج ففتحه وناولني منه ثلاث ورقات خضراء فتلقفتها يدي بسرعة خاطفة.

وفي الطريق كنت مشغولاً، بذلك الصغير الوسيم الذي غير المرض سيماءه وتمثلت لي صورته واستعدت الكلمات التي نطق بها بعد أن أفاق ذات ليلة وأجال بصره بيننا ثم قال في براءة:

ـ «أريد حلوى، كالتي رأيتها منذ أيام في يد أحد أولاد الجيران..»

فالتقت نظراتي مع زوجتي في ابتسامة كبيرة إليه وقمنا نحتضنه وقد عادت الطمأنينة إلى نفوسنا وقلنا في صوت واحد:

ـ «حاضر.. يا حبيبي سنشتري لك كل شيء..»

وأفقت من تفكيري على بوق سيارة ينفخ من خلفي في قوة فابتعدت عن وسط الطريق في وجل وخوف، وأنا

قابض على ذلك المبلغ الصغير، وكأني أخاف يداً مجهولة تمتد إليّ.. تنتزعه مني.. وأنظر إليه في فرح صبياني، وأرى فيه الأمل والحياة لابني الوحيد الذي يحتل ركناً هاماً من حياتي..

ولما اقتربت من الكوخ، وأصبحت على قيد خطوات منه سمعت بكاء تتخلله الشهقات وكان هناك كلب يعوي ودجاج ينبش الأرض فسرت في أوصالي رعشة واشتدت خفقات قلبي، وعندما اقتربت من الكوخ ركلت بابه بكل قوة.. رأيت زوجتي وهي مرتمية على السرير تبكي الجسد الصغير..

بنغازي ـ 22/ 12/ 1958 م

(*) نشرت في مجلة «ليبيا الحديثة» العدد رقم (٢) بتاريخ 10/9/1967 م.

كبرياء

هدأت ضجة المدينة الصاخبة بعد أن ركن كل شيء فيها إلى الهدوء وكأنها قد أتعبها هذا الضجيج فأرادت أن تخلد إلى الراحة والسكون، وأخذت الخطوات تقل كلما اكتهل الليل، وأنوار الشارع الكبير ترسل ضوءها مما أنس من وحدتها وهي جالسة، شاردة الذهن، وقد ذهب بها الخيال بعيداً، في أحداث موغلة في القدم.

وأحست بشيء من الارتياح والسعادة تغمران كيانها، وهي تستعيد أحداث هذه الفترة السعيدة من حياتها.

كانت شابة، فرحة بما أضفته عليها الطبيعة من جمال

وفتنة وهي ترى هذه البراعم الصغيرة على صدرها وقد تفتحت للحياة وأخذت تزدهر، وذلك القوام الرشيق وقد تكامل نضجه، والعينان العسليتان التي ترمي نظراتها الناعسة المعبرة في عذوبة وصفاء.

وكانت ترى دائماً نظرات الإعجاب تنطلق من كل عين تشاهدها وتستدير إليها الأعناق مشرئبة، ولكنها لا تعير هذه النظرات العطشى أيما اهتمام، فهي خالية البال لا يشغل تفكيرها سوى اليوم الذي تعيشه فقط.

ومع هذا السحر والجمال، الذي يتضوع من جسدها الشاب، فإنها لا تؤمن بالحب وترى أنّه وهم كبير يعيشه الإنسان، ويتعذب ويحترق بناره، عندما يضنيه الحنين ويعصف به الحرمان.. فأوصدت أبواب قلبها عن ندائه العذب وأخذت تسخر من كل من أحب وتعزو ذلك إلى أنه ضعف إرادة..

وكان لشقيقها صديق من أيام التلمذة، حينما كانا يستذكران معاً - ويمت إليهم بصلة قرابة بعيدة - يتردد عليهم في البيت من حين لآخر، وقد امتدت جذور

صداقتهما حتى بعد انتهاء دراستهما.

وبحكم هذه القرابة كانت كثيراً ما تلتقي به في البيت، إلا أنها كانت تتجاهله في كبرياء وغرور، ولما لاحظ هو ذلك قابل كبرياءها بمنتهى التجاهل واعتبرها وكأنها غير موجودة، فشعرت هي ـ من ناحية أخرى ـ وكأنه يريد أن يخضعها لامتحان ما أو أنّه يتعمد إهانتها، وضايقها هذا الشعور وهي الفتاة المحبوبة التي يتمناها ويشتهيها الجميع.. ولكنها قالت لنفسها أخيراً في استسلام: ما لي أنا به، ألم أكن البادئة بهذا الجفاء والبرود فماذا يهمني من أمره؟

وفي عصر أحد الأيام جاء «أحمد» يسأل عن صديقه ـ شقيقها ـ وكان غير موجود فتعمدت تجاهل سؤاله واكتفت بأن هزت رأسها نفياً.

وشملها بنظرة ترشح بالاحتقار، ثم ارتكزت عيناه على ضفيرتين مجدولتين بعناية ترتعشان على صدرها فأحست بالخجل وأطرقت إلى الأرض، وقد أدركت بأنها قد أهانته وجرحت كبرياءه، وكأنها تتلذذ بذلك، فرجع في صمت

وقد امتقع وجهه وغدا شاحباً واتخذ طابعاً قاسياً. .

وبعد هذا اللقاء القصير لم تره أبداً، فأخذت تنحى على نفسها باللائمة قائلة: «لقد كنت قاسية عليه، مع أنه في منتهى الأدب كم أخطأت في حقه».

وعذبها الإحساس بالذنب وتمنت لو تراه دقيقة واحدة فقط فتعتذر له عما بدر منها نحوه ولكنه لم يأت. .

والغريب أن شقيقها قد تجاهل الحديث عنه، وكأنه يتعمد تعذيبها هو الآخر دون أن يدري، وحاولت أكثر من مرة أن تسأله عنه، ولكنها خجلت من ذلك وقد تذهب به الظنون وتأخذ لها مجرى آخر. .

وشعرت لأول مرة في حياتها بشيء اسمه القلق، وتساءلت في نفسها متعجبة: لم هذا الاهتمام به، وهذا التلهف على لقائه إلى هذا الحد. . هل أحبه؟!.

وكم من مرة وقفت بالنافذة يعمر قلبها الأمل في شوق ولهفة لعلها تحظى برؤيته وتكتحل عيناها بمنظره، وفي كل مرة كان يخيب أملها وتعود كاسفة البال.

وعندما تسمع طرقات الباب، تنتفض فجـأة، وقد تسارعت خفقات قلبها وتتمنى من الله ان يكون «أحمد» هو الطارق، فتحس بالأمل يزحف إلى نفسها فيغمر كيانها ويشمله بالسعادة، ولكنها تكتشف في النهاية أنّه لم يكن هو. .

وأصبحت دوماً فريسة للقلق والحيرة، وهي تذرع أنحاء البيت لا يستقر لها قرار، وقد تعكر مزاجها وازدادت نفسيتها تعقيداً. .

وفي إحدى الليالي ـ وكانت في الفترة الأخيرة تطيل الجلوس في شرفتها لمنتصف الليـل تقريبـاً ـ أحست بأطرافها ترتعش، ولم تعد تتمالك نفسها وقد ارتفعت حرارتها واصطكت أسنانها فلزمت الفراش.

ووقعت فريسة للحمى. .

وتعذبت وقد هدها المرض والإعياء، وصارعت الموت في بسالة، وأخيراً، حينما شفيت من مرضها ومن ثم أصبحت في دور النقاهة، دخلت عليها والدتها ذات صباح

وقد نشرت الشمس رداء الدفء اللذيذ فغمر الكون قالت لوالدتها:

ـ «من قدم لزيارتي خلال مرضي؟ . .»

وأخذت والدتها تذكر لها كل من عادها من الصديقات والأقرباء وشعرت بخيبة أمل عندما لم تذكر لها اسم «أحمد» وتساءلت في نفسها: «إذن فهو لم يحضر حتى في مرضي، ولكنها عادت فالتمست له العذر وقالت: «ربما لم يعلم، ولكن مستحيل لا بد أن شقيقها قد أخبره بذلك فهو لا يكتم عنه شيئاً. .»

وأخيراً قالت والدتها وهي تضحك:

ـ «آه. . . لم أكن أعتقد أنك تكتمين سراً. .»

فجارتها في الضحك، ولم تفقه لكلامها معنى وقالت متسائلة بقلب واجف:

ـ «وما هو هذا السر يا ترى؟»

فأجابت والدتها بشيء لا يخلو من المغزى وهي مستغرقة في الضحك:

ـ «الحقيقة أن «أحمد» شاب طيب ومن عائلة كريمة وتتمناه كل فتاة. . »

وعرفت ما ترمي إليه والدتها فأطرقت خجلاً، ولم تقو على رفع بصرها وقالت في همس وهي تتمنى لو أن والدتها تعيد لها ما ذكرته عن أحمد:

ـ «كل شيء بأوانه. . »

واستغربت أن تكون قد أحبت وهي التي سخرت من الحب وعزته إلى الضعف ثم أخذت تضحك وقد شملت الابتسامة رقعة وجهها.

ولما استعادت صحتها، وأشرق وجهها، وتألقت ابتسامتها الساحرة، وفجر فيها الحب كل طاقات السعادة والحبور، بعد أن أصبح لا مجال للإنكار بأنها تحبه بكل جارحة فيها. .

واحتضنت هذه العاطفة الوليدة في قلبها، وهي تتعجل اليوم الذي ترى فيه «أحمد» لتخبره بكل ما يعتمل في قلبها الصغير ولتضع حداً لهذا العذاب الذي أرقها وأسقمها،

ولكنه هل يأتي؟ وقد عرفت أخيراً أنّه «من ذلك النوع الذي يضع كرامته الشخصية فوق كل اعتبار ولو أدى ذلك إلى أن يدوس على قلبه ويجهض حبه».

وفي مساء أحد الأيام، وكان شقيقها يرتدي بذلته الجديدة قال مخاطباً والدته في فرح:

ـ «لا تنتظروني الليلة على العشاء فإنني سوف أتأخر. .»

واعتقدت في نفسها أن أخاها ربما قد وقع هو الآخر صريع الهوى فقالت له وهي تبتسم وقد غمزت له بإحدى عينيها بطرف خفي:

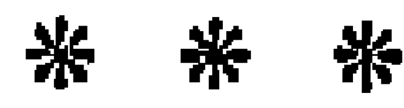
ـ «أهناك جديد، من سعـ. .»

فقاطعها بكل هدوء:

ـ «الليلة ملك لصديق العمر «أحمد» فقد تزوج. .»

قال هذه العبارة وخرج مسرعاً، وأحست كأنّه أغمد في قلبها مدية بكل هدوء دونما أن يشعر بذلك، ولم تعد

متمالكة لنفسها وقد اصفر وجهها فحبست دموعها واتجهت إلى حجرتها مباشرة فأغلقتها على نفسها وانخرطت في البكاء وهي تجتر آلامها وكبرياءها الجريحة، وكم تمنت لو أنها رأته قبل أن يتزوج لاعترفت له بحبها وقالت له إن هذا البرود الذي كانت تسجن نفسها فيه إن هو إلا افتعال زائف أفسد عليها حباً كان يجب أن يترعرع ويعيش في مناخه الطبيعي . .



وفي تلك الفترة الحرجة تقدم إليها أحد أقاربها للزواج بها، فلم تمانع أو تعترض، فما قيمة الرجل الذي سوف تتزوجه الآن، إنّه لا يعدو أن يكون كالآخرين لا تربطهم بها وشائج الحب والمودة ومع هذا فقد استسلمت لمصيرها برباطة جأش.

ومع أنها كانت لا تحس بعاطفة ما نحو زوجها إلا أنها أخلصت له وتفانت في سبيل إدخال السعادة على قلبه، فهي معدن تكره الخيانة. . تمقتها ولو بالتفكير ولكنها لا

تستطيع أن تمنع نفسها من التفكير فيه مع أنه قد استولت على قلبه وحياته امرأة أخرى وتسائل نفسها في حيرة: «ترى هل يحبها وهل هو سعيد معها؟!».

وفي خلال حياتها الزوجية رزقت بطفل فأسمته على اسم حبيبها: أحمد فكانت كلما تنظر إليه كأنها ترى فيه حبيبها، فانصرفت إلى طفلها ربما يدخل السعادة على قلبها وحياتها الكئيبة، خاصة وأنها لم تستطع أن تمنح زوجها السعادة المنشودة فهي بالنسبة إليه ـ حتى وإن كانت جميلة ـ إلا أنها باردة العواطف وهي ترى الشعور بالمرارة والخيبة من زوجها، فقالت له في أحد الأيام وهي تريد أن تضع حداً لهذه التمثيلية الهزلية وقد عزمت في نفسها على أمر:

ـ «ألا ترى أنّه يجب علينا أن نكف عن هذه اللعبة، فلماذا نخدع أنفسنا ونتظاهر أمام الناس والأهل بالسعادة ونحن أبعد ما نكون عنها».

فلزم زوجها الصمت، وقد أحس بأنه هو نفسه يمثل الدور ولكنه كان يرى في تـواجد هذا الطفل ما يحفظ هذا

التصدع في حياتهما ولكنه كان واهماً فرد بتلعثم وهو يعتصر ذهنه وكأن الكلمات قد هربت منه:

ـ «هو عين الصواب، يجب أن نفترق بهدوء بعد أن استحالت علينا الحياة معاً. .»

وهكذا افترقنا. .

* * *

وفي أحد الأيام، وبينما هي جالسة في استرخاء تستمتع بدفء شمس الشتاء وابنها يحبو أمامها طرق الباب فقامت والدتها وفتحته ولما أقبل نحوها وتقدم منها عرفته فتمتمت في نفسها: «أخيراً جاء، ولكن بعد فوات الأوان. .»

وأذهلتها المفاجأة وبدأت كالمشدوهة، فاقترب منها في خطوات وئيدة، فقامت هي وتصافحا بحرارة، وأحست بمنتهى السعادة ويدها مستسلمة ليده الكبيرة في دعة، ولما طلبت منه الجلوس تجاهل دعوتها خاصة وأنه عرف أن شقيقها غير موجود.

ثم انصرفت والدتها وخلفتهما معاً، فحمدت لها هذا التصرف وبقيت معه وجهاً لوجه، وخيم عليهما الصمت وأخذ صدرها يعلو ويهبط في انفعال وقد جاشت نفسها بارتعاشة لذيذة سرت في جسدها لقربها منه وكانت بين الفينة والأخرى تختلس إليه النظر وتسائل نفسها: «ترى هل يحبني؟!..»

وأرادت أن تضع حداً لهذا الصمت الثقيل الذي فرض نفسه عليهما فقالت وهي ترمق الخاتم في يده اليسرى:

ـ «آه.. نسيت أن أهنئك بالزواج..»

فأجاب وهو يتنهد وقد شردت نظراته إلى بعيد وكأنه يستعيد في مخيلته ذكرى معينة وقد تعلق نظرها بشفتيه وهي تنتظر إجابته بفارغ صبرها:

ـ «لا أفشي سراً لو قلت إنه زواج لا أستحق التهنئة عليه».

وأدركت من رده أنه غير سعيد وسرها أن يكون كذلك وكأنها تتشفى به وهي التي تحطمت حياتها الزوجية بسببه،

إذن فقد تعذب هو الآخر، وقطع عليها أفكارها حينما قال:

ـ «يجب أن يكون الزواج مبنياً على أساس من التفاهم والمودة والتكافؤ بين الزوجين، فبذلك يتأتى لهما معاً بناء حياة سعيدة حقاً».

فردت في ثقة:

ـ «منذ متى يكون للفتاة في مجتمعنا رأي في الزواج، فهي تساق إليه بلا إرادة أو وعي ولا يدرك ولي أمرها أن هذا النوع من الحياة يخصها وحدها وقد تشقى في حياتها حينما يكون الاختيار غير موفق..»

ـ «إن طليعة الشباب المثقف يجب أن يضع حداً لهذه التقاليد التي تعوق الإنسان عن التقدم ويضع أسساً جديدة من شأنها خلق حياة أفضل..»

وأدركت بأنّه يقول الحقيقة بكل أبعادها، وتمنت فعلاً أن يسود هذا المجتمع علاقات إنسانية يكون فيها للحب والمودة نصيب كبير بعيداً عن أية مؤثرات خارجية وأن لا ينظر إلى الحب وكأنه سلعة محرمة من التداول.

ثم أخرج سيجارة وأشعلها وجذب منها نفساً عميقاً ونفث دخانها فابتلعه الجو وقال:

- «إننا نحيا حياة زائفة، تفصل بيننا الأنانية وسوء الفهم . . »

- «هل معنى هذا أنك عشت تجربة فاشلة، فإنك تتحدث بمرارة».

وأدرك ما ترمي إليه وعرف أنها تحتضن هي أيضاً عاطفة المودة والحب وهي التي ما فتئت تتظاهر بالكبرياء والغرور فأجاب:

- «كان لا بد لي أن أتزوج، لا سيما أن والدتي أصبحت طاعنة في السن فأخذت تلح عليّ بذلك فرضخت لمشيئتها مكرهاً دون أن أدقق في الاختيار».

ولزم الصمت قليلاً، واقترب منها وأخذ إحدى يديها بين راحتيه فلم تمانع وكأنما كانت تنتظر منه هذه الخطوة ودعكهما ببطء ودعة ثم استطرد:

- «ولم أرَ منك بادرة تشجعني على التقرب إليك،

فاعتقدت أنك تكرهينني أو على الأقل أنني شخص غير مرغوب فيه فآثرت الانسحاب.»

وترقرقت الدموع في مقلتيها وأحست بأنها فعلاً قد ضيعت من حياتهما معاً حباً عظيماً كان يجب أن يزدهر.

ثم قالت وهي تمسح دموعها:

- «لقد كنت مغرورة فعلاً، وفوت عليَّ هذا فرصة الحياة السعيدة وكان الثمن غالياً..»

ثم اتكأت برأسها على كتفه واستكانت إليه وقد شعرت بالاطمئنان وجاشت نفسها بأحاسيس السعادة وسرت إلى جسدها الحرارة وتمنت أن تكون معه هكذا وليكن ما يكن..

وبينما هي لائذة به، هائمة من الوجد وقد أضناها الشوق وعذبها الحرمان قالت له في سعادة اشتركت كل قسماتها في الإفصاح عنها:

- «لا تتركني، فيكفي ما لقينا من البعد والحرمان..»

وامتدت يده إلى شعرها الفاحم تتخلله ورد:

ـ «لن أتركك أبداً، يجب أن نبدأ حياة جديدة يظللنا فيها الحب ويدثرنا بدفئه اللذيذ..»

وفي تلك اللحظات تفجرت في حياتها ينابيع السعادة وأحست كأنها قد ولدت من جديد وقد سرت في نفسها خفقات الحب فترنحت سكرى بعد أن أبعدت عن حياتها هذا الغرور والكبرياء..

بنغازي ـ 23/ 9/ 1966 م

(*) نشرت في مجلة «الإذاعة الليبية» العدد رقم (6) بتاريخ 15/9/1967 م.

العذاب

صفقت باب البيت ورائي في قوة وعنف، وأنا ألعن في نفسي الظروف القاهرة التي قادتني إلى هذا الزواج بدون رغبة أو عاطفة تربطني بزوجتي باستثناء قرابتها لي..

وكانت علاقتنا الزوجية رتيبة، متسمة بالبرود والخمول، لا تسري في أوصالها الحرارة والدفء، الذي يشبع حياتي وخيالي الجامح وعاطفتي المتقدة دوماً.

وحاولت مع الأيام أن أختصر هذه المسافة التي تفصلنا، إلا أنني كنت أفشل، أمام برودة عواطفها وعدم استجابتها واهتمامها بشيء ما..

وتحايلت عليها حتى أعلمها القراءة والكتابة، فأقبلت عليها بادىء الأمر في شغف واهتمام، ثم ما لبث أن فتر هذا الاهتمام وتدريجياً انصرفت عني متعللة بأسباب تافهة.

كنت أريد إشراكها معي في الجو والحياة التي أعيشها لتناقشني في آرائي وقراءاتي واهتمامي بكافة القضايا الأخرى، إلا أنني صدمت، ومن ثم يئست من أمر إصلاحها فقررت أن أترك مصيري معها للمقادير لتفعل بي ما تشاء..

وعذبني الحنين والظمأ إلى حياة يدثرها الحب والحنان الصادق فعشت في فراغ عاطفي، مفتقراً إلى الكلمة والابتسامة الحلوة، وآمنت مع كر الأيام بأنني أعيش على هامش الحياة، بلا هدف أو حب يسير خطواتي..

على أنني حمدت الله لأني لم أرزق منها بطفل يقيدني إليها، في الوقت الذي ما فتئت تلح عليّ لزيارة الطبيب علّها تحمل، إلا أنني كنت أسوق إليها مختلف الأعذار طيلة ثلاث سنوات.

وتمثلت لي صورة والدي، وهو على فراش الموت، وقد دب الوهن في أوصاله وغدا شاحباً، وهو يتقدم نحو الموت بخطى سريعة وتوصيته الأخيرة لي عندما قال:

- «يجب أن تتزوج من ابنة عمك، وتحقق لي هذه الأمنية حتى أرتاح في قبري..»

ولزم الصمت قليلاً، فيما أجال بصره بيني وبينها ثم استطرد:

- «كم كنت أتمنى لو تم هذا الزواج إبان حياتي.. يجب أن تقسم بأنك ستفعل ذلك».

وتململ في فراشه قليلاً، وتحت إلحاحه وكنت منفعلاً مع رهبة الموت وقسوة الموقف أقسمت بأن أفعل ذلك، مدفوعاً لتحقيق رغبة والدي التي اختلجت في نفسه وضميره ردحاً طويلاً من الزمن..

وكانت تترامى إليّ في أحاديث الأسرة ومجالسها بأنني الزوج المرتقب لابنة عمي..

ولم أحاول مناقشتهم في هذا الرأي، يقيناً مني بأني

سوف أقرر رغبتي وإرادتي وحدي بعيداً عن أية مؤثرات، وبوحي ما تمليه عليٍّ عاطفتي لا سيما وأنها جاهلة ولا تعرف من أمور الحياة شيئاً. .

إلا أن مرض والدي المفاجىء، وطلبه مني أن أتزوجها وضع حداً لهذا الحوار بعد أن تحدد الإطار الجديد لحياتي.

وهكذا تدخلت الظروف لصالحها دونما أن يصاحبها أي اهتمام من جانبي فأسرتي لا تريد لها أن تعيش في أحضان رجل غريب ـ بمعنى أنه زواج تشبعت به المصالح الذاتية بعيداً عن أية عاطفة. .

* * *

وبعد وفاة والدي، قررت أن أعيد النظر في قسمي، أريد التحلل منه بأي شكل، لأنني أبديت هذا القسم مدفوعاً بعاطفتي القوية نحو والدي وإشفاقاً مني عليه لتحقيق أمنية أخيرة له. .

وجعلت أماطل في الزواج متعللاً بعذر أو بآخر إلا أن والدتي وبقية أفراد أسرتي أحكموا الحصار عليّ في ضرورة إيفائي بالعهد الذي قطعته على نفسي وتحقيقاً لرغبة إنسان عزيز راحل.

وهكذا زفت إليَّ، ورضخت للأمر الواقع مكرهاً، وبالرغم من كل شيء فإنني كنت أوفي نحوها بكل التزاماتي العائلية والزوجية موقناً بأنني سأستطيع أن أشكلها وفقاً لحياتي واهتماماتي ومن ثم تحلق معي في الأجواء التي أعيش فيها بكل عاطفتي ووجداني.. إلا أن هذا الأمل أخذ يحتضر أمام عنادها وعدم استجابتها لي.

طافت بذهني هذه الأفكار وأنا أتسكع عبر الشوارع والأزقة بلا هدف وقد أضناني العذاب، والوقت يمر بطيئاً متثاقلاً، كأنه يتعمد هو الآخر إشعاري بعمق وأبعاد حياتي التافهة..

وأخيراً وبعد أن هدني الإعياء والتعب رأيت نفسي أقف أمام إحدى علب الليل، تلك العلب النتنة التي تمتلىء بها مدينتي الصغيرة ومن ثم تستنزف أموال التافهين والفارغين

لقاء متعة أو لذة زائفة تزول ـ كما بدأت ـ في سرعة خاطفة يعقبها الندم والحسرة . .

وعندما دخلت ذلك الملهى، كانت الصالة الكبيرة مشبعة بالدخان تفوح من أرجائها رائحة الخمر، والكل لاه والصخب والضوضاء يملآن المكان. ولغط تصحبه آهات وتنهدات بعد أن سرى الخمر في الرواد فخدر عقولهم وبعث فيهم النشوة والحاجة إلى الحديث والثرثرة، فيما كان ضوء أحمر خافت يرسل أشعته الواهنة على تلك المناضد المتناثرة التي يجلسون إليها، وصبايا عاريات الأجساد والصدور تقريباً يخترقن ذلك الجمع الصاخب من الرجال بلا حياء أو خجل أو يجلسن معهم والساقي يحمل إليهن الخمر بين لحظة وأخرى . .

وتسللت في خطوات يحدوها الحذر ومن ثم فقد اتخذت مجلسي في ركن منعزل، بعيداً عن دائرة الضوء، والعرق يتقاطر مني، وقد احمر وجهي، فقد كانت تجربتي الأولى . .

وبعد فترة بسيطة، قدمت إليَّ امرأة تمشي الهوينا،

وتتمايل في دلال حتى لتكاد تقع، وبدون أن تنتظر مني أية إيماءة أو إشارة جذبت كرسياً وجلست عليه بحذائي مباشرة . .

وتطلعت إليها بعينين تكسر في أغوارهما الحزن والأسى، فرأيت صدرها الناهد، وكأنه يتحداني أن أصمد أمام إغرائها، وشعرها الأشقر منسدلاً على كتفيها في إهمال متعمد، وقد اكتسى وجهها حمرة خفيفة من أثر الشراب.

قلت لها في ضيق وأنا أتأمل شفتيها المكتنزتين الشهيتين وجسدها الذي يبدو وكأنه قطعة من المرمر:

- «يجب أن تبحثي لك عن إنسان مليء، فأنا لا أستطيع أن أقدم لك شيئاً. .»

فردت وهي تتثنى في دلال وقد مالت عليَّ حتى لامس كتفها العاري ذراعي فأحسست برعدة خفيفة تسري في جسدي:

- «المال. . ليس كل شيء!!»

فأجبت في سخرية:

ـ «ربما..»

فقالت وهي تغمزني بإحدى عينيها الملونتين:

ـ «بدليل أنك مثلاً تستطيع أن تشتري جسدي وتمتلكه، ولكنك لا تقدر على شراء قلبي وعواطفي..»

واكتفيت بأن هززت رأسي متجنباً مناقشتها يقيناً مني بعدم جدوى الحوار معها..

وظلّلنا الصمت، فيما كانت تزيح من حين لآخر خصلة من شعرها الذي يتدلى على جبينها الأبيض، فنظرت إليها باشتهاء ورغبة وتمنيت لو أدفن رأسي في هذا الشعر الذي أسكرني العبير المتضوع منه..

وكنت في الواقع تحت تأثير حالة نفسية سيئة، إلا أن مجالستها لي أدخلت عليَّ بعض العزاء..

وأخيراً قامت ووقفت خلفي مباشرة، ثم انثنت تهمس في أذني وقد شعرت بنهديها يلامسان ظهري يضغطانه بخفة ورقة:

- «إلى اللقاء.. فقد أزف موعد عملي..»

فأجبتها في رقة وعذوبة:

- «ترفقي بي، فإنني لا أستطيع مقاومة هذا الإغراء..»

ثم انصرفت في عجل فيما كنت أتأمل جسدها من الخلف، وجعلت أفكر في المعنى الذي قصدته من وراء عبارتها هذه، وجعلت أراقبها من بعيد وهي تقف على خشبة الصالة لتؤدي رقصتها وهي تنتزع ما تبقى من ثيابها..

وكان من المتعذر عليَّ أن أنام تلك الليلة، فإن صورتها تتراءى لي في حركاتها ولفتاتها مما أرقني، وهي تصافح خيالي الجامح، فكنت أتقلب في فراشي كالمحموم وأتعبني خيالي وهو يصورها لي ماثلة بين أحضاني..

وقررت أن أزور الملهى، مرة أخرى فقط، ليكتحل ناظري برؤياها، وسعيت إلى نفس مجلسي السابق أنتظرها، وتلاقى نظرنا في سرعة خاطفة فالتفتت عني وتجاهلت وجودي على الإطلاق، فيما كان القلق يكاد

يفتت أعصابي ببطء مقيت ونقمت على نفسي لأنني لم أحاول في الليلة الفائتة استمالتها أو طلب الشراب لها.

وجلست بمفردي أجتر الخيبة والمرارة، في الوقت الذي كانت تعابث فيه أحد رواد الملهى، وتمازحه، ومن آن لآخر تتمايل عليه وتهمس في أذنه ثم يضجان بالضحك..

وشعرت بالغيرة تزحف إلى قلبي، وحاولت أن أقف لأصفعها بعد أن تملكني الحنق والغضب، إلا أنني استطعت أن أتحكم في نفسي بصعوبة بالغة متعللاً بأنه لا دخل لي فيما تفعل فإنني لا أحبها على أية حال..

وأخيراً خرجت أجر خطواتي في تثاقل ووهن، وقد عصف بي اليأس..

وحضرت في الليلة الأخرى وقررت أن أتحداها مهما كلفني الأمر، وعندما رأيتها تجلس بمفردها اتجهت إليها مباشرة وجلست بجوارها في حذر ووجل وقلت في صوت رقيق محاولاً استمالتها:

- «هل لا زلت غضبى مني؟!..»

فانبرت تضحك حتى مالت إلى الخلف، واحتقن وجهي بالدماء وشعرت، بالخجل من نفسي، ثم صفعتني عبارتها عندما قالت:

- «ليس هناك ما يدعو إلى الغضب أصلاً..»

- «إذن، لِمَ لَمْ تحضري ليلة البارحة.»

فردت في لهجة ساخرة وببرود قاتل:

- «أنا حرة..»

وتساءلت في نفسي أكثر من مرة عن سر اهتمامي بها إلى هذا الحد وتلهفي على لقائها: هل أحبها، إلا أنني سرعان ما أجبت بالنفي..

ثم قالت وهي تضع يدها البضة على كتفي في بساطة وخالجني الارتياح لهذه اللفتة، وقد أينعت قسماتها بالعطف:

- «لا تأخذ الأمر مأخذ الجد، فقد أردت أن أختبرك فقط..»

- «إن من يراك مرة لا يستطيع أن ينساك بسهولة».

وندمت على تسرعي وتفوهي بهذه العبارة، فإنني صراحة لا أريد لها أن تشعر بما يعتمل في نفسي حتى لا تتعمد إذلالي..

ثم قالت في دلال، فيما كنت أنا في قمة النشوة والفرح:

- «وماذا عنك؟»

- «إنني إنسان تائه، أبحث عن الحب والجمال أينما يكون».

- «هل أنت شاعر»

- «ليس بالمعنى الحرفي لهذه الكلمة..»

فقالت وهي تمط شفتيها في تقزز واشمئزاز بعد أن رشفت كأسها:

- «لقد مللت هذه الحياة التافهة.. وأبحث عن إنسان يستطيع أن يفهمني ويقدرني، بعيداً عن الطمع في جسدي، فهل تكون أنت..»

وعجبت في نفسي: كيف تكون حياتها تافهة وهي مطمح لكل الرجال الذين يجري لعابهم لمجرد رؤيتها، والذهب يسيل بين يديها، وأخيراً أفقت من تفكيري عندما قالت:

ـ «ما رأيك؟!»

فأجبت بنبرة صادقة:

ـ «موافق.. ويبدو أننا نعيش في مشكلة واحدة وإن اختلفت ظروفنا..»

إلا أنني قلت لها متسائلاً:

ـ «ولماذا وقع اختيارك عليَّ بالذات.. مع أن الجميع يشتهونك وجيوبهم مليئة بالمال..»

فنظرت إليَّ طويلاً ثم أطلقت آهة وقالت:

ـ «خبرتي تؤكد أنك معدن مختلف عنهم».

وتساءلت في نفسي: هل من الممكن قيام صداقة بين رجل ـ خاصة في مثل ظروفي ـ وامرأة صارخة الجمال،

تكون بعيدة عن الحب، إلا أنني قررت أن أوفي بعهدي وأكون لها صديقاً فحسب.. فإن ذلك لا يخلو من المتعة أيضاً.

ثم ناولتني مفتاح شقتها، بعد أن اتفقنا على أن نلتقي فيها هناك دوماً، فكنا نقضي معاً أسعد الأوقات وأمتعها.. وفي الأوقات التي تكون فيها غير مقيدة أو مرتبطة بالعمل كنا نذهب إلى خارج المدينة ونعود في المساء نقضي بقية سهرتنا إلى منتصف الليل تقريباً، ثم أودعها وأعود إلى بيتي..

وفي أحد أيام الصيف قررنا أن نذهب إلى البحر واخترنا شاطئاً بعيداً لا يؤمه الناس، وبعد أن استرحنا قليلاً أخذت تخلع ملابسها فيما كانت نظراتي تتابع حركة يديها وقد تسارعت خفقات قلبي محدقاً في جسدها باشتهاء ورغبة ثم نزلت إلى الماء في خفة ورشاقة ومن ثم فقد أخذت تداعب الأمواج وتعابثها في حركة لا تخلو من الإغراء، ثم دعتني إلى السباحة ففعلت مغتبطاً، ومن حين لآخر كانت تقذفني بالماء فسبحت وراءها حتى استطعت

أن أمسكها من وسطها فانصاعت إليَّ بدون مقاومة، وانثنى جسدها يتلوى بين يدي وهي تتأوه في دلال وخفة فملت عليها أقبلها فلم تمـانع. . .

وبعد أن مللنا اللعب جلسنا على الشاطىء ثم أخذت حفنة من الرمال وقالت فجأة:

ـ «هكذا تتسرب منا الأيام دون أن نشعر بها، والسعيد من اغتنم اللحظة الحاضرة. .»

ـ «صحيح»

ـ «ترى ماذا تخبىء لنا الأيام يا صديقي. .»

ـ «من أين لي أن أعرف»

ثم أسندت رأسها على صدري، فغدا شعرها الذهبي متناثراً على رقعتـه فيما كنت أخـاطب نفسي أنه من المستحيل أن أضطلع معها بدور الصداقة بعد أن انفلت منا الزمام.

ورفعت رأسها فجأة واتكأت عليَّ بصدرها فشعرت

بنهديها يضغطان جسمي وذوائب شعرها تتلاعب بها الرياح وقالت وقد لمع بريق أخّاذ في عينيها:

ـ «أتعرف أنني بدأت منذ مدة أغير رأيي نحوك دون أن تشعر فقد انقلبت الصداقة إلى ما كنت أخشاه، فأصبحت حينما لا أراك أشعر وكأن ثمة شيء هام أفتقده..»

ـ «إنه شعور متبادل..»

ثم طوقتها بذراعي في حرارة ووجد أذابا كل المسافات التي كانت تفصلنا بعد أن زال ذلك القناع الزائف الذي كان يغلف صداقتنا.

وأحسست مع الأيام بأنني لا أستطيع الابتعاد أو الحياة بدونها، فكنا نقضي أغلب الأوقات معاً يملأ جوارحنا الحبور والسعادة.

إلا أنني في نفس الوقت شعرت بوخز الضمير لهذه العلاقة الآثمة فأنا زوج، ومرتبط بأقدس الواجبات، وأن حياتي الجديدة بكل ما حفلت به تتعارض مع زواجي فأردت أن أضع حداً لمهزلة زواجي.

وفي تلك الليلة، وقد عزمت في نفسي على أمر ورجعت إلى بيتي مبكراً وما إن رأتني زوجتي حتى تهلل وجهها بالسعادة والاغتباط فقالت والفرح يلون محياها:

ـ «لقد استجابت أخيراً السماء لدعائي . . »

فأجبت في خوف:

ـ «ماذا تقصدين؟ . . »

ـ «إنني حامل. . ولقد تأكد لي ذلك بصورة قاطعة».

فتمتمت بصوت خافت:

ـ «غير معقول»

وأخيراً خرجت إلى الشارع، وقد امتلأت نفسي بالحزن بعد أن أضيف إلى حياتي قيد جديد، فإن الظروف تتدخل دوماً في اللحظة الأخيرة، فقد خضعت حياتي إلى نهايتها وقضى عليها فيها بالعذاب. . .

بنغازي ـ 8/ 5/ 1967 م

(*) نشرت هذه القصة بالعدد رقم 44 و45 السنةالثالثة في جريدة الريبورتاج الصادرة بتاريخ 1968/1/14 م.

الرجل الصغير

احتضنت السماء صلواتها وابتهالاتها في صمت ورفعت إليها عينين دامعتين، مستنجدتين، وقد أينعتا بالدمع.. آه يا له من دمع عنيد كلما حاولت وقفه.. أما كبحه.. انسكب في إصرار يلهب خدها الأبيض الذي اعتراه وشاب صفاءه نوع من الاصفرار والشحوب، وأخيراً شعرت بأن شفتيها قد انفرجتا بكلمات متوسلة ضارعة:

ـ «يا رب.. ماذا أفعل؟»

كانت أعماقها تمور، تعتمل بشتى الانفعالات وقد

تنازعتها الآراء وتوالت على رأسها الصغير الجميل أفكار فجة فأصبحت حيرى أسيرة لها، لا تدري كيف تتصرف..

إن نفسها بحر متضارب تتصارع أمواجه الكبيرة في ضراوة وقوة تكاد تغرقها.. تهلكها، إلا أن سيماء وجهها تظل هادئة ومحتفظة بوداعتها وبساطتها.

وتطلعت حولها، رنت بنظرة ترشح.. تنضح بالحب والحنان إلى الأحبة.. أطفالها الثلاثة النائمين بجوارها وأنفاسهم الهادئة تتردد في انتظام فاقتربت منهم في رفق.. حذر فقبلتهم ثم أحكمت عليهم الغطاء، واستلقت بجانبهم.. تمددت في إعياء وقد هدتها الأفكار، أتعبتها ـ وهي الخالية البال ـ فتشاغلت بالنظر.. بالتطلع إلى السقف بعينين زائغتين لا تطرفان وكأنها تنتظر منه حلاً ما لمشكلتها.. مجرد مشاركة وجدانية، تلقي إليه بمتاعبها وهمومها، ولكنه جماد.. فعادت نظراتها إلى الأرض في مذلة وانكسار..

وكانت أقصى لحظة يائسة.. ممضة بالألم عندما

تواجه أطفالها الصغار وهم يلحون.. ويسألون في إصرار:

- «أين أبي.. متى يأتي، لقد طالت غيبته..»

وتحس بالعجز أمام هذه الأسئلة المتلاحقة، فتلتزم الصمت لحظة، فكم من مرة كذبت عليهم.. أخفت عنهم الحقيقة، وأخيراً تجيب في عبارة مقتضبة تريد أن تضع حداً لملاحقتهم لها وإحراجها:

- «سوف يأتي قريباً..»

غير أنها تعرف بينها وبين نفسها أنه لن يأتي..

وتواردت عليها الخواطر في قوة وإصرار، وفرضت نفسها عليها وكانت تريد أن تبعد عنها هذه الذكريات التي عاشتها مع زوجها، ولكنه مات..

عندما نضبت.. شحت موارد زوجها المالية، في تلك القرية اقترحت عليه قائلة:

- «يجب أن نغادر هذه القرية، إلى المدينة، لعل الحظ يصادفنا هناك..»

كان حائراً.. لا يعرف كيف يتصرف، ولا على أية صورة وأخيراً أطلق زفرة حارة وتنهد في ضيق وتبرم وقال:

- «لم يعد هناك بد من ذلك».

وودع القرية هو وأسرته في جنح الظلام، بعد أن باع كل ما لديه، غادرها وهو ينتزع أقدامه في صعوبة بالغة، ولولا أنه حزم أمره على أن يتركها نهائياً لولّى الأدبار وأطلق ساقيه للريح.. فقد صعبت عليه مغادرته للقرية على هذه الصورة، هذه القرية التي تلقفته طفلاً، ثم رجلاً..

وانتقلت الأسرة الصغيرة إلى المدينة الكبيرة التي تفتح فاها.. أبوابها الكبيرة لمئات القادمين، النازحين من الريف فتبتلعهم ليلتحقوا بالشركات نظير بضع جنيهات.. تاركين الزراعة، ومخلفين الريف في فراغ ووحشة.

وافتتح في أحد الشوارع الجانبية محل بقالة..

وصادف في بداية حياته الجديدة متاعب وصعوبات، ولكنه لم يكن أمامه مفر من الصبر والاحتمال فهو لا يريد.. لا يرغب في العودة إلى القرية ـ مرة أخرى ـ وقد مني بالفشل، وكانت زوجته لا تفتأ تشد من ساعده، وتحثه على مواصلة الرحلة إلى النهاية بدون كلل، فلم تتضجر أو تشكو شيئاً ما.. وتقاسمت معه حياته بكل مرارتها وقسوتها..

وأخيراً وبعد صبر طويل، ابتسم له الحظ، فأخذت تجارته تزدهر، بعد أن تفتحت عيناه على أشياء جديدة باهرة في المدينة، ومع الأيام تلاشت من يديه وملامحه سيماء الريف، وجرى ماء الصحة في وجهه.

وكافأ زوجته بكل ما كانت تتمناه، وعوضها عن سنوات الحرمان والعذاب وغنت.. غردت الآمال في قلبها الشاب فعاشت معه حياتها في سعادة ومرح..

ثم فجأة تخلف عن الرحلة مرغماً.. وخلفها وحدها تجتر ذكرياتها معه.. أيامها السعيدة الضائعة فبكته في صدق وإخلاص.. وشعرت بأنه لا قيمة لحياتها الآن

بعد أن تركها، حبيبها.. وزوجها، وحيدة مع ثلاثة أطفال، ولكنهم صغار يا إلهي أكبرهم أحمد في العاشرة من عمره.

لم يكن ينقصها شيء.. فهي جميلة.. جذابة، ربعة القامة، في الثلاثين من عمرها واسعة العينين في سواد كالليل، لها شفتان رقيقتان، ووجه أبيض مستدير، ولكن ما قيمة الجمال دون إنسان يعزز فيك هذه الناحية فيلهب جذوتها من حرارة أنفاسه ولفحاته التي تحمل في ثناياها الحنين والشوق..

وتكاثر.. تقاطر حولها الطامعون.. الباحثون عن المتعة الحسية، يسلطون عليها نظراتهم الجائعة النهمة التي يطل منها الحرمان.. فكل منهم يتحين الفرصة ليظفر بها، غير مقدرين مشاعرها وحزنها الدفين.. إلا أنها صفعت نظراتهم الجريئة بكل إصرار وثبات ورفضتهم.. وانطوت على نفسها تزدرد حزنها وآلامها في صمت وهي تشعر كل يوم.. كل لحظة بفظاعة الفراغ الذي تركه زوجها في قلبها وحياتها.

وتوالت الأيام وهي لا تزال وكأنها غير مصدقة وقد أذهلتها المفاجأة تحس بالضياع والحيرة بعد أن تركها.. خلفها وحدها، ولكنه مات..

وبعد أن استردت شيئاً من هدوئها اتجهت إلى الدكان، فكانت تقف من وراء ابنها تساعده، تشد من أزره وهي تراقبه في خشية ولهفة وهو يقف في الدكان يبيع ويصرف شؤونه الصغيرة، وقد جعلت منه وفاة والده رجلاً قبل الأوان فأصبحت نظرته إلى الأمور أكثر استقراراً ونضجاً وبعداً..

وعندما يرجع في الليل، تضع والدته العشاء بين يديه وتجلس بجانبه وأخواه الصغيران يلعبان من حوله.. يتقافزان، فيأكل عشاءه يلتهمه في عجل، ثم يلتفت إليهما يداعبهما ويلاعبهما إلى أن يغلبهما النعاس، وعندما يستسلمان إلى النوم يحملهما الواحد تلو الآخر بين يديه ويضعهما في فراشهما ثم يقبلهما ويحكم عليهما الغطاء..

وتتطلع إليه والدته.. إلى الرجل الصغير، بنظرات

الإشفاق واللهفة والحب وهي ترى عوده الصغير الغض نهباً للكد والمتاعب، وقد عاجله اليتم في سن مبكرة. .

ثم يجلس بين يديها في صمت ويضع رأسه في حجرها، ويحكي لها ما صادفه. . ولقيه في يومه وهو يبتسم، ويظلا يتسامران حتى يكتهل الليل فيأوي إلى مضجعه بعد أن يلقي نظرة أخيرة على أخويه النائمين.

وكان يساعد ابنها. . يعينه في تسيير أمور الدكان وشراء البضاعة من المتاجر والمخازن الكبيرة، وقيد الحساب والمصاريف ابن عم لزوجها الراحل وصديقه الوفي. . رجل في أواخر العقد الرابع من عمره يميل إلى الهدوء والدعة. . حنكته الحياة، وصهرته. . أنضجته التجارب. .

كان دوماً يتردد عليهم، ولما توفي زوجها شعر بأنه يتوجب عليه مساعدة أسرة قريبه وصديقه. . خاصة وأنه ليس لها أحد يمكن أن تلجأ إليه فكان يبدي لها المساعدة، ويتبادل معها الرأي في الأمور التي تخص الدكان.

وكانت ترى في عينيه.. تطل منهما نظرات الرثاء والشفقة، ولدها في نفسه ترملها وهي لا زالت صغيرة.. ناضجة في أوج أنوثتها وشبابها.. ويحترم فيها هذا الحزن وفاءً لزوجها.. صديقه الراحل.

وما لبثت هذه النظرات العطوفة أن اتخذت لها طابعاً آخر يحمل في طياته الإعزاز والمودة ومع الأيام تحولت إلى حب هادىء توقد ناره أعماقه المتأججة شوقاً ولهفة.

كان يتحرق شوقاً.. يتلهف إلى اليوم الذي يبث فيه لواعجه وحبه إليها، بعد أن شعر أخيراً بمدى حاجته إلى الدعة وحياة البيت والأسرة.

وفي أحد الأيام ـ بعد أن أكمل ما لديه من عمل ـ قال وهو متأهب للانصراف، في صوت رقيق ونظراته إلى الأرض وقد لمعت حبات من العرق على جبينه:

ـ «إنني أقدر فيك هذا الوفاء لزوجك الراحل،

وأشفق عليك من هذا الحزن الذي تغلفين به حياتك. . »

ولزم الصمت وقد ازدرد ريقه ثم أدلف:

- «. . فحرام أن تضيعي حياتك هدراً، ولذلك فإنني أعرض عليك، الزواج. . »

وفوجئت بهذا الطلب، فاعتصمت بالصمت، وقد نورد. . احمر وجهها خجلاً وحياءً.

إلا أن حديثه أيقظ في نفسها، بعث في حياتها وشبابها الحياة وتذكرت. . اختلجت في نفسها مشاعر الأنوثة فخاطبت نفسها قائلة في تساؤل: «هل يتطلب مني الوفاء لزوجي الراحل أن أظل عديمة الجدوى حتى لنفسي فأقضي عليها بالحرمان وأقبر معه شبابي الذي يضج بالحيوية، ولكنها ماذا تفعل بأولادها، ماذا تقول لهم؟ إنها لا تريد لهم أن يعيشوا في عذاب على حساب سعادتها وتدخل على حياتهم رجلاً سوف يعتبرونه غريباً عنهم مهما كانت علاقتها به. . »

وانتشلها من أفكارها عندما قال وقد عرف ما يجول بخاطرها يحثها ويغريها بالقبول:

ـ «ثقي بأن أولادك سيكونون محل عطفي ورعايتي..»

فقالت في صوت رقيق كالهمس، وهي حائرة:

ـ «دعني أفكر في الأمر..»

ثم انصرف في خطوات واثقة وتركها وحدها تتنازعها الحيرة والقلق.

وفجأة برز ابنها أحمد ـ وكان يسترق إليهما السمع ـ وأحست به يدنو منها في بطء وحذر.. ولما تطلعت إليه رأت في عينيه بقايا دموع كانت عالقة بأهدابه، ووضع يداً واثقة وضغط بها على كتفها وقال في إصرار:

ـ «هل نهون عليك إلى هذا الحد يا أماه؟!»

وفهمت ما أشار إليه، وعرفت أنه سمع كل شيء، وهي التي كانت تحسبه نائماً، إلا أنها تجاهلت حديثه،

وقالت وقد أطرقت إلى الأرض وكأنها خجلت من النظر إليه:

ـ «وكيف كان ذلك؟»

ـ «إنني صراحة لا أسمح لأحد مهما كانت له علاقة بوالدي أن يحتل مكانته، مع احترامي لشعورك..».

ثم رفع عينيه فاصطدمتا بصورة والده المعلقة على الحائط، ولاحظت والدته هذه الحركة وأخيراً تطلعت إليه وردت:

ـ «ولكنه مات..!»

فرد ابنها في صوت قوي مليء بالثقة والاعتداد بالنفس:

ـ «مات جسداً فقط، إن روحه ما فتئت تدفعني إلى التضحية لتكملة ما بدأه».

ووجدت نفسها أمام امتحان قاسٍ.. مرير إلا أن الحديث أنهض فيها أمومتها فتغلبت على ما عداها ومن

ثم فقد وضعت حداً لهذا التردد وهذه الحيرة.

وأشرق وجهها.. أضاء بابتسامة مشرقة واحتضنت ابنها بنظراتها وقد تنهدت في ارتياح وغبطة بعد أن توصلت إلى الحل الذي أراحها وشعرت وكأن حملاً ثقيلاً قد انزاح عن كاهلها:

ـ «لك ما تشاء، فأنتم بالنسبة إلي كل شيء، ولا أطلب من الله شيئاً إلا أن يحفظكم لي..»

وما إن أكملت عبارتها حتى ترقرقت الدموع في عينيها، فاندفع إليها ابنها أحمد وطوقها.. احتضنها في قوة ودفن رأسه الصغير في أحضانها فضمته إليها في حب وفخر وقد فاضت أمومتها.. تدفقت في قوة وعنف ـ كما لم تعهدها من قبل ـ فاقتلعت.. اكتسحت في طريقها كل رغبة ولذتها في نفسها لحظة ضعف..

بنغازي ـ 10/ 8/ 1966 م

(*) نشرت هذه القصة من الإذاعة الليبية في بنغازي بتاريخ 1968/8/8 م.

لحظة ملل

جلس إلى المقهى في بلادة وتكاسل.. كان يحس بالضياع يكتنفه.. يلقي به في متاهات بعيدة، وشعر كأنه يدور في حلقة مفرغة، وما إن ألقى بجسده المتعب، حتى تحسس مسرح الحياة الواقعية المحيطة به، وهو يراقب هذا السيل البشري، الذي لا ينقطع..

لقد تعب كثيراً من التسكع عبر الشوارع والأزقة المعتمة، فهو يستطيع أن يعبرها وهو شبه مغمض العينين.. لقد سئم هذه الوجوه الكئيبة التي تقابله أنَّى

كان، لتزيد إحساسه بما يعانيه. . وكم من مرة ارتكب بعض الحماقات الصغيرة التافهة ليذهب عنه لحظة ملل بسطت ظلها الكئيب على نفسه، وسئم أيضاً النظر إلى جميع الأشياء، ومن ثم فقد اعتادت عيناه أن تتلقفها بنفس فاترة، خالية من الحماس، آه. . حتى منظر النساء عاريات السيقان والأفخاذ والنهود، لم تعد تُثير فيه أية رغبة حيوانية، يمكن أن تختلج بها أعصابه المريضة.

كان الوقت مساءً، وقد اكتظ المقهى بالرواد، فجعل يتسلى بمراقبة الناس في غدوها ورواحها، في حركة تدل على الملل والضجر الصارخ، ويحاول أن يرسم لكل منهم شخصيته من خلال مشيته أو تصرفاته. .

إلى متى تظل هذه الحالة تنتابه؟! طاف بذهنه هذا السؤال، ولما لم يهتد إلى إجابة ما مد يده ورشف من فنجان القهوة الموضوع أمامه، وكاد أن يبصق ما ملأ به فمه، لولا خشيته من نظرات الاستغراب التي سوف تندلع من أعين الرواد، فهو يعيش في مجتمع مريض لا هم له إلا تصيد أخطاء الغير.

ولما مر به النادل قال له في صوت واهن كأنه مريض:

ـ «أريد قهوة حلوة من فضلك».

ولم يهتم بالرد عليه.. تجاهله ومضى مهرولاً، وشعر بأن هذه الإهانة قد سحقته، فزادت من نفسيته تعقيداً، وفكر في أن يقوم ويصفعه: من يظن نفسه يا ترى؟ غير أنه ازداد انكماشاً في مقعده..

وشغله عن التفكير في هذا الحادث مرور شابة أجنبية ترتدي الميني جيب يصاحبها شاب ممسك بها من خاصرتها، وكأنه يخشى أن يختطفها منه ثمة أحد.. ومع كل عواطفه التي اعتادت الركود والخمول، تطلع إليها في نظرات تندلع منها الرغبة والاشتهاء.. فقد كانت فعلاً أكثر من رائعة، إنه جمال من نوع آخر شفاف لم تلحظه عيناه من قبل.

وأعاد إليها النظر مدققاً، يستمرىء التحديق في هذه الفتنة، إنه لا يدري لماذا استمد راحة واطمئناناً من النظر إليها.. كانت ذات عينين في لون البحر عندما يكون

هادئاً، وشعر أشقر ذوائبه تناوش جبينها الأبيض اللامع في رفق وحنو. . واكتسى جسدها بخمرة خفيفة محببة أعطى لوناً رائعاً كأن الشمس قد لوحته.

وكانت من حين لآخر تتمايل على رفيقها تعابثه، أو تهمس في أذنه ثم يضجان بالضحك، وتمنى أن تنتقل إليه عدوى السعادة، ولما غذت السير كانت نظراته العطشى مشرئبة إليها حتى اختفت. . تاهت في زحـام الحياة والناس. .

وأحس برغبة جامحة في تتبعها، غير أنه أدرك عدم جدوى ذلك، وما الطائل؟ لا شيء إلا مزيداً من العذاب ومن ثم الشعور بحمأة ووطأة الحرمان!!

وتساءل: أيكون هذا الجمال ملء النظر، ومع هذا تفصله عنك مسافات شاسعة تحول بينك وبينه، وأطلق عليها المجتمع المحـافظ: تقاليـد. . إذن فكل شيء محسوب عليك في هذا المجتمع المريض، حتى الحب، تصور، محنة الله الكبرى!!. .

وتذكر صديقته، رفيقة طفولته.. آه، لقد تزوجت الآن، ومن ثم انتهى كل شيء بالنسبة إليه على أية حال، لا بد أن أنوثتها قد اكتملت الآن، ودماء الشباب الحارة قد انبثقت في جسدها.

ولسبب لا يدريه تمنى لها في قرارة نفسه أن لا تشعر بالسعادة الزوجية، لكي تتعذب، كما تعذب وشقي هو، «إننا قطعاً لا نتمنى لأحد سعادة سلبها منا ونحن نشعر بأنها من حقنا».

يا إلهي.. لقد ترك من أجلها بلدته، ليكافح في المدينة ومن ثم يشق له طريقاً وسط هذه الأنماط البشرية، التي تجري بسرعة متكالبة على المال، ليتأتى له أن يتزوج منها ولكنه قال في نفسه:

ـ «الظروف.. لو تأتّى لنا الوقوف عليها لربما التمسنا للإنسان العذر في أحيان كثيرة..»

ودمعت عيناه، لقد ذبلت هذه العيون بكاءً وحزناً،

والأيام تتسرب هكذا مسرعة الخطى من بين أيدينا دون أن نشعر بها.

وتراءت له فجأة قصة صديق كان في السينما، أطفئت أنوار الصالة ولمّا يزل الكرسي بجانبه خالياً، تمنى لو تشغله سيدة ما، وحلق به خياله في أن تكون له معها مغامرة عابرة.

وبعد لحظات قصيرة، سمع خطوات استطاع أن يعرفها جيداً، كانت لامرأة جلست بجانبه على الكرسي مباشرة، بعد أن خلفت له عبيراً متضوعاً من أعطافها اللدنة. . وكم حمد الله على تحقيق تخيله بهذه الصورة، ومع أنها داست على قدميه إلا أنه غفر لها هذه الإساءة الصغيرة، وما الضير في ذلك؟!..

ولما تطلع إليها، رأى قسمات وجهها الدقيقة وكأنها رسمت بعناية فائقة.

وفقدت الشاشة البيضاء اهتمامه، فقد تحول إلى جارته الحسناء، وتعمد أن يسند ذراعه على الحاجز الذي يفصل

بينهما، فاصطدمت بزندها العاري الأملس، وشجعه صمتها على أن يحاول في حركة لا تخلو من الخبث أن تمتد إحدى أرجله عبر المقاعد لتلامس ساقيها.

ولما شعرت بهذه الحركة، أدركت، فيما يبدو، أنه فعل هذه الحركة متعمداً، فندت عنها شهقة، على غير توقع من أحد ما، مزقت السكون الذي كان مخيماً على النظارة.

ثم تطورت الأحداث بصورة مذهلة لم يتوقعها أو يحسب لها حساباً، فقد أضيئت أنوار الصالة، واشرأبت إليه الأعناق، وعيون نهمة تبحث عن جديد يكون غداً موضوعاً للثرثرة وقتل الوقت..

وامتقع وجهه، وقطرات العرق تلمع فوق جبينه، فيما كانت تصل إلى سمعه تعليقات لاذعة ساخرة.

وضحك وهو يستعيد هذه الحوادث التي تواردت على خاطره وكأنه محموم.

آه.. إن رتابة الحياة، قد خلقت منه إنساناً جافاً ومن ثم، فقد حولته المدينة، بكل ما تحفل به من النفاق

والرياء، إلى آلة صماء، مجرد من الإحساس والشعور، وكم تمنى لو أنه يستطيع صنع الحياة من جديد ويصب فيها ثمة قوالب جديدة معاصرة، تواكب التقدم المضطرد في حياتنا ومفاهيمنا..»

وشعر بالظمأ إلى الحب، يملأ حياته ويضفي عليها نوعاً من الأهمية يكون قادراً على انتشاله من وهدة الفراغ الذي يعيشه صباح مساء بكل أبعاده، فلا أماكن للتسلية أو اللهو البريء، فحتى النوادي تحولت إلى منتدى للسمر وتناول سيرة الناس وتشريح حياتهم الخاصة، ثم أين «الخيالة»، ودور المكتبات العامة والحدائق.

وقفز إلى ذهنه فجأة سؤال تناوله هذه المرة بجدية واهتمام:

- «ترى أي مستقبل ينتظره في ظل هذه الحياة التافهة؟!

ثم تطلع إلى بعيد، وخيل إليه أنه يرى مستقبله تحيط به هالة من السواد ففرك عينيه وحولهما بسرعة وكأنه يريد أن يبعد عنه هذه الصورة القاتمة.

وأخيراً وبعد أن ملَّ الجلوس، وأتعبه فكره، قرر مغادرة المقهى، فقد شعر بالتقزز والاشمئزاز، بيد أنه تناهى إليه حوار هامس بين اثنين من الرواد كانا على مقربة منه.

ثم سمع أحدهما يقول هامساً، وكان يوليه ظهره، في نبرات يغلب عليها التخاذل، مؤكداً كلامه بسبابته:

ـ «تصور يا أخي، لقد خانتني، والغريب أنها فعلت ذلك مع إنسان تافه».

وعجبت لشجاعة هذا الرجل وصراحته، وهو يتناول هذه الناحية الدقيقة من حياته.

كان جليسه، يبدو هادئاً، وفي حالة خيل إليه أنها لا تتفق مع حالة صديقه، غير أنه قال أخيراً:

ـ «لا بد أن يكون هناك ثمة سبب».

فقاطعه الزوج المخدوع بحدة:

ـ «صدقني لا توجد أية أسباب يمكن أن تبرر لها هذه الخيانة، فلا يجب أن تلتمس لها الأعذار..»

ولسبب لا دخل له فيه أحس بالتعاطف على الزوج المخدوع، لحظة وجدانية عابرة، ولكنها عامـرة بكل أحاسيس الرثاء، ثم قال في نفسه وكأنه يواسيه:

ـ «لقد مر كثيرون غيرك بهذه الحالة، فلا تقلق، إنها سوف تضيع قطعاً في زحام حياتنا المتشابكة المعقدة. .»

وبدا له أن يحلل بواعث هذه القضية فقال:

ـ «مسكين أنت أيها الزوج هل تعتقد أن المال بالنسبة للمرأة هو كل شيء إنها أيضاً في حاجة إلى كلمة طيبة، تشعر بأنها أنثى ومشتهاة، وهذا في رأيي أقصى ما تتمناه حواء، وربما أيضاً معذورة، لأنك لم تستطع أن تكيف حياتها كأنثى بطريقة ملائمة!! وربما دفعها إلى ذلك لحظة ملل. .»

وحاول أن يسترق إليهما السمع من جديد وأرهف أذنيه جيداً غير أن ضجيج سيارات فرح ما بأبواقها المزعجة حالت بين ذلك فشعر بالأسف.

وقرر في النهاية مغادرة المقهى وهو لم يزل يشعر ببرودة

قاتلة في قلبه وعواطفه، ويشعر بأن الملل يكاد يخترق جسده ويطلع له لسانه هازئاً به ساخراً منه!!...

بنغازي - 12/ 10/ 1967 م

(*) نشرت هذه القصة تحت عنوان: «لحظة من فضلك» في مجلة الإذاعة الليبية العدد - 20 في 1967/11/15 م كما أذيعت من صوت العرب بالقاهرة في 1968/1/28 م.

شيء من العذاب

وقف «صابر» وسط المنزل الصغير، الملحق بالقصر، ونظره مشدود إلى حجرة معينة، وقد تقاذفته شتى الأفكار ورأسه يصطخب بالهواجس السوداء، وهو، لا يفتأ يشعر بألم ممض، كلما تناهت إليه، عبر الباب المقفل، صرخات زوجته وأناتها وكأن ثمة مدية حادة تقطعها، إرباً إرباً.

كان يود في أعماقه، لو اقتحم عليها الحجرة، ليقف بجانبها عله يستطيع أن يخفف عنها وطأة ذلك الشعور بالألم والعذاب، وهي معلقة بين الحياة والموت. . غير أنه

ارتأى أن الرجولة تحتم عليه الصبر.

وبعد لحظات ـ وكأنها دهر ـ أطلت عليه عبر الباب الموارب عجوز شمطاء قبيحة الوجه ضئيلة الجسم، تميل بشرتها إلى السمرة، وأومأت إليه برأسها فهرول إليها مسرعاً بنظرات قلقة يجوس بها خلال تقاطيع وجهها الكئيب، وملامحها القاسية التي لا تنم عما يختلج في أعماقها، وحاول أن يتكلم إلا أنه شعر وكأن حلقه قد جف فحاول أن يزدرد ريقه فيما قالت العجوز وقد اعترتها الدهشة لموقفه الذي يدعو إلى الغرابة:

ـ «يجب نقلها إلى المستشفى فحالتها خطيرة».

فشعر وكأن قلبه قد توقف عن الخفقان، فضرب كفاً بأخرى وقد تولته الدهشة وشعر بعجزه عن عمل شيء ما، إلا أن فكرة معينة جالت بخاطره، فرد وكأنه يحدث نفسه:

ـ «حاضر». .

وتحسس جبينه، وشعر بقطرات من العرق تتفصد منه، واندهش فقد كان الجو يشع بالبرودة، والمطر ينهال عليه

وهو لا يشعر بشيء مطلقاً، فقد كان في حالة تجمد فيها الإحساس والشعور.

كانت الشمس قد أُفلتْ منذ وقت طويل، فيما أخذ الظلام ينشر رداءه الكئيب وغرق كل شيء في الظلام، إلا من مصابيح بعيدة كانت تشع بالنور، وهرول خارج الدار وتعلقت نظراته الحائرة إلى القصر، فلاحظ أن الأضواء لا زالت تسطع منه فتمتم:

ـ «إذن لم يخلدوا للنوم بعد. .»

كذلك قال وهو يحدث نفسه في الطريق، وقد شعر بالارتياح يداخله، وبينما كان يهم بالدخول إليه التقى مصادفة، بـ: إبراهيم، فما إن شاهده الآخر حتى رمقه بنظرة قاسية، وهو لما يزل يلهث مضطرب البال فحاول قدر استطاعته أن يهدىء روعه، وأخيراً استطاع أن يتمالك نفسه قائلاً في ضراعة:

ـ «سيدي. .»

ـ «ماذا وراءك. .؟»

فرد «صابر» وهو يلتقط أنفاسه ويصلح من هيئته قدر ما استطاع:

- «هل يتفضل، سيدي، بإعطائي سيارة لنقل زوجتي للمستشفى؟»

- «ماذا ألمَّ بها؟»

- «إنها تريد أن تضع طفلاً يا سيدي!!»

فامتقع وجهه، واصفر لونه، وشعر كأن ثمة يد قوية قد أمسكت بقلبه، وأحس في لحظة خاطفة بأن الأقدار - وهي التي هيأت له سبل الحياة المترفة - تسخر منه بمرارة وقوة لا قِبل لها باحتمالها، حتى وإن تظاهر بالجلد، فقد حرمته من الأبوة.. أعز شيء كان يتوق إليه في حين يرزق أحد خدمه بطفل.

ولما شعر بأن أنظار «صابر» قد تعلقت به قال له وهو ينتزع ابتسامة صفراء كلفته كثيراً من الجهد والعناء:

- «مبروك، وقل للسائق أن ينقلك..»

فانطلق يعدو، لا يلوي على شيء، لدرجة أنه نسي أن يشكر سيده، فلما تذكر ذلك همَّ أن يعود أدراجه إلا أنه حس بأن ذلك قد جاء متأخراً، فضلاً عن أن سيده قد دلف إلى داخل القصر.

وفجأة توقف «إبراهيم» وراح يسائِل نفسه وكأنه يلومها على شيء لم تستطع أن تمنحه له:

ـ «كيف لم يرزق بطفل، طوال هذه السنوات، وهو ما انفك يتردد هو وزوجته على الأطباء؟»

ثم استأنف سيره بتثاقل وحزن عابس الأسارير، تنم سيماءِ وجهه عن الحزن الدفين المشوب بالمرارة، فما إن رأته زوجته حتى خفت إليه وهي تبتسم قائلة:

ـ «لم أنت هكذا، هل ثمة شيء يقلقك؟»

ـ «تصوري أن زوجة «صابر» تريد أن تضع طفلاً..»

فاختفت الابتسامة من وجهها، فردت، وهي تحاول أن تسري عنه ومن ثم لتخفف من وطأة الشعور بالعجز

والنقص الذي يعتوره:

ـ «كل شيء مرهون بأوانه..»

ـ «الذي يحيرني حقاً، هو أن جميع الأطباء قد أجمعوا وأكدوا سلامتنا من جميع الوجوه».

ـ «أقدار...»

ـ «صدقت...»

كذلك قال في تسليم، فيما أطلق زفرة حارة، ثم ابتسم واقترب من زوجته محاولاً ضمها إليه، ليذهب عنها سحابة الحزن التي جثمت على قسماتها الوادعة مستطرداً:

ـ «لا عليك، يا عزيزتي، فيكفي أننا سعداء».

فلاذت بالصمت، ولم تستطع أن تكبح دموعها فأجهشت بالبكاء، فانحدرت عبراتها عبر خديها الشاحبين فقالت وهي تحاول أن تتمالك نفسها:

ـ «أريد طفلاً فقط، وأتنازل مقابل ذلك عن كل ما أملك».

ـ «يجب أن نرضخ للأقدار، فلا تدعي اليأس يتطرق إليك».

ـ «إنني أشعر وكأننا ندور في حلقة مفرغة تتسع هوتها يوماً بعد آخر، فإن وجود طفل في بيتي كفيل بأن يدخل علينا السعادة، ويبدد سحب رتابة الحياة وتفاهتها».

وأخيراً قال زوجها وكأنه يريد أن يضع حداً للقلق وليصرف تفكيرها ـ ولو مؤقتاً ـ عن هذا الموضوع:

ـ «يجب أن نعيش اللحظة الحاضرة بكل أبعادها».

ـ «حسناً. . .»

كان كل منهما يتحرق شوقاً. . وتضطرم نفسه حنيناً عارماً إلى الطفل، غير أن كلاً منهما كان يحاول أن يخدع الآخر ليدخل بعض العزاء على نفسه، ومن خلال هذه التجربة عرفا ـ باقتناع ـ أن المال ليس هو كل شيء.

وأخيراً انسحبت من لدنه بهدوء وصمت وهي تشعر بصداع خفيف ومن ثم فقد لاذت بحجرة نومها التماساً للراحة فيما كانت نظراته التي ترشح بالرثاء تلاحقها.

واستيقظت في صباح اليوم التالي متأخرة بعض الشيء، بعد أن تدفق إلى الحجرة شلال من نور النهار، عبر الستائر، وغمر الحجرة بالضياء، فتمطت في فراشها وأحست ببعض الارتياح يدب في أوصالها المكدودة، ثم تناولت إفطارها بشبق وشهية وذهنها خالٍ تقريباً مما يعكر مزاجها.

ثم نزلت، بحذر ورفق، تتمشى في الحديقة الصغيرة المحيطة بالقصر وتخطر فيها بتؤدة ونظراتها تتكسر على ما يحيط بها عندما التقت بـ «صابر» ممسكاً بيده خرطوماً طويلاً يسقي به الزهور، وعلامات الرضا والصحة تبدوان على سيمائه وساعديه المفتولين، فألقى عليها تحية الصباح بجذل وحبور، فافتر ثغرها عن ابتسامة طيبة تنضح بالود والصدق..

واقتطف وردة بيضاء جميلة ثم ناولها إياها قائلاً في مودة واحترام:

- «هل تتفضل، سيدتي، بقبول هديتي المتواضعة؟»

فتلقفت يدها البضة الهدية، ثم قربتها من أنفها وقد تضوع منها عطر ساحر فشدت منها نفساً عميقاً، وأدخلت هذه الهدية ـ على بساطتها ـ السعادة على نفسها وأحست بالارتياح وظل ابتسامة فاتنة تتراقص على شفتيها.

ـ «لقد أنجبت زوجتي طفلاً، يا سيدتي».

قال ذلك، فجأة، وبدون تمهيد فيما كانت قطرات الماء تتناثر حوله وعيناه مركزتان، على أحواض الزهور، ولما لم يتلق رداً استطرد:

ـ «. . . وقد أسميته: «حامد».

ومع أنها شعرت وكأنه يقول لها ـ بحسن نية وعن غير قصد منه ـ أنها عاجزة عن إنجاب طفل، إلا أنها مع كل هذا أحست بالسعادة له فقالت في صدق وحرارة:

ـ «مبروك . .»

ثم تناولت ورقة خضراء، من حافظة يدها الصغيرة، ومدت إليه بها وهي تراقب ما يبدو على سحنته من سعادة وقناعة:

ـ «خذ.. هدية الطفل، أنت لست مديناً لي الآن بشيء..»

وضحكت بصفاء، فيما امتدت يده وتلقفت منها الورقة المالية وطوى يده عليها بقوة وكأنه يخشى أن تفلت منه أو ينتزعها أحد ما قائلاً بعبارات صادقة وبمودة:

ـ «أشكرك، يا سيدتي، فقد أسبغت عليَّ الكثير من فضلك».

فأجابت بتواضع ورقة جعلت عيناه تنفران بالدموع:

ـ «العفو...»

وعندما اختفت عن ناظريه ولمّا تزل دموعه عالقة بأهدابه، تفحص الورقة المالية فوجد أنها ذات الخمس جنيهات.

وتذكر كيف أن سيدته كانت دائماً رقيقة الحاشية، تعامله برفق، وتعطف عليه فكان ينطلق معها على سجيته يضمر لها في خلجات نفسه وأعماقه مودة صادقة ويحرص على إرضائها.

أخذ «حامد» يتردد، بخطواته المتعثرة على القصر مع والدته، وببراءته وطريقة تصرفاته كانت تثير في صدر «منى» كوامن الأمومة الهاجعة في أعماقها مضفياً عليها السعادة، فكانت تصر على أن يبقى معها سحابة النهار وترعاه بنفسها وتغدق عليه الكثير من الهدايا والعطايا، في حين أن زوجها كان لا يعيره التفاتاً.

وفي أحد الأيام، تخلف «حامد» بعد أن تركته والدته وجاءت بمفردها ولما لاحظت «منى» ذلك اندفعت إليها متسائلة في قلق ولهفة:

- «أين حامد، هل هو مريض؟»

- «كلا، يا سيدتي».

كذلك، قالت والدته باقتضاب، ولزمت الصمت المطبق فشعرت منى بأن في الأمر شيئاً فتطايرت وتلاحقت أسئلتها وقد عيل صبرها:

- «أريد أن أعرف بسرعة».

- «قد تغضب، سيدتي، لو عرفت السبب».

فتولاها الفضول، واشرأبت إليها بكل حواسها وهي تحثها على الإفضاء بما يختلج في أعماقها:

- «إن زوجي لا يريد أن يسبب، لسيدتي، ضيقاً».

- «وكيف ذلك؟!»

- «إنه يخشى أن يكون «حامد» عاملاً لإذكاء الحنين في نفسك إلى الأمومة»

فشعرت بشيء حار يتدفق عبر مقلتيها، وقد هزتها وحطمت نفسها هذه الملاحظة القاسية - ومع هذا - فقد التمست له العذر وقالت في جرس حزين:

- «يا لرقة شعور زوجك، والحقيقة أن وجود «حامد» وإن كان يدخل عليَّ السعادة إلا أنه يشعرني - في الوقت نفسه - بالحاجة الملحة لطفل لي..»

- «هو ذاك، يا سيدتي»

ثم ابتسمت «منى» ابتسامة تدل على الارتياح وقد اهتزت أعطافها اللدنة وقالت في لهجة يشوبها الفرح الغامر:

ـ «هل تدرين، أنني حامل!!»

فشعرت أم حامد، بالسعادة تزحف إلى قلبها وقد توردت وجنتيها وأجابت في لهجة صادقة وبنفس طيبة فُطِرتْ عليها أمثالها من الطبقة الكادحة التي تعيش حياتها في بساطة وقناعة ورضا:

ـ «لقد عوض الله صبرك خيراً، يا سيدتي»

فسرحت «منى» بنظراتها بعيداً وكأنها تستشف ما في باطن الغيب أو ما ستلده لها الأيام الحبلى دائماً بالمفاجآت:

ـ «سيكون طفلي رفيقاً لـ «حامد»

ـ «أجل، يا سيدتي، أجل».

وفي تلك الليلة شعرت «منى» بالسعادة تجتاح قلبها لدرجة حرمتها من النوم فكان المستقبل، يتراءى لها بعين الخيال وطفلها الصغير يحبو أمامها متعثراً في خطواته وأخيراً استسلمت للكرى ورؤ يا سعيدة كانت تتمثل لها في الأحلام.

وفي إحدى ليالي الصيف المقمرة، وكان الجو مشبعاً بالرطوبة شعرت «منى» بآلام المخاض، فاستدعيت القابلة على عجل، فظلت ملازمة لها، فيما بقي زوجها قلقاً ينتظر في إحدى الحجرات يذرعها جيئة وذهاباً عاقداً يديه خلف ظهره ويدخن بشراهة.

وأخيراً، شعر بخطوات عبر الردهة الطويلة، فاتجه خارج الحجرة فالتقى بالقابلة ـ وكانت في طريقها إليه ـ فتفرس في ملامحها بنظرات حائرة متلهفة، وكأنه يريد استنباط ما تنبىء به ملامحها فقالت له وهي تبتسم:

ـ «لقد وضعت السيدة طفلة، وهي بخير..»

ـ «الحمد لله.. وهل أستطيع رؤيتها؟»

ـ «إنها متعبة، وتريد أن تخلد للراحة قليلاً..»

ثم تركها، ولم يعبأ بقولها، وسار بحذر حتى اقترب من حجرة زوجته فسمعها تنادي بصوت واهن ضعيف:

ـ «أريد أن أرى ابنتي..»

ولما سمع صوتها الضارع تقدم إليها بلهفة، ومن ثم فقد أخذ الطفلة من مهدها ـ غير عابىء بشيء ما ـ وأخذ يتفرس في ملامحها بسعادة وحبور ثم قبلها بكل عناية وحرص وناولها لزوجته فضمتها إلى صدرها وأخذت تنتحب وتقبلها بشغف.

فرقَّ قلبه، وقال بحرارة وهو يلاحظ شحوب وجهها وارتخاء جسدها وقد هدها الإعياء:

ـ «إنها نسخة ثانية منك، أليس كذلك؟!»

فنظرت إليها عبر شعاع القمر المتكسر من النافذة وقالت:

ـ «أجل.. أجل، كم هي جميلة».

ووقف بجانبها هنيهة إلى أن تراخى جفناها، واستغرقت في النوم، فرفع الطفلة كرة أخرى ووضعها في سريرها وأحكم عليها الغطاء ثم غادر الحجرة برفق وقد انتشى سعادة وطرباً.

* * *

وأصبحت طفلتها «هدى» هي شغلها الشاغل، فكانت تشرف على شؤونها بنفسها بحب وصبر، إلا أنها مع هذا لم تنس حامد فكانت تهتم به كدأبها في السابق، بعد أن رأت أنه رفيق رقيق لابنتها سيما وأنه كان طفلاً يركن إلى الهدوء والدعة.

وعندما شبت «هدى» والتفتت حولها لم تجد غير «حامد» فاندفعت إليه وتعلقت به ببراءتها تشاركه اللعب وعبث الطفولة. فيما أخذت والدتها تقرب بينهما الهوة التي تفصلهما حتى أصبحا ظلين لا يكادان يفترقان..

وفي إحدى أمسيات الخريف، وقد أخذت ريح خفيفة تجوس عبر أغصان الأشجار العارية من الأوراق ـ جلس «إبراهيم» يحتسي الشاي، مع زوجته، وكان الطفلان يلهوان بجانبهما قال لزوجته ونظراته لا تحيد عنهما وكأنه يريد أن يستكشف ما يدور في أعماقها:

ـ «إنني لا أرتاح لهذا الطفل، فقد تعلقت به «هدى» لدرجة كبيرة».

ـ «وأي ضير في ذلك، فهما طفلان»

ـ «أخشى أن يؤثر عليها ذلك مستقبلاً فقد لاحظت في عيد ميلادها الأخير أن جل اهتمامها كان منصباً عليه».

ـ «كلا . . »

وكانت في الواقع لا تريد غير إسعاد ابنتها بغض النظر عن مصدرها، فضلاً عن أنها لا تريد إقلاق زوجها بشيء لم يحن أوانه بعد.

وهكذا نشآ سوياً، بعد أن شبّا عن الطوق، ومع مرور الأيام كان كل منهما يحس بضرورة وجوده للآخر، وإن كانت علاقتهما يشوبها شيء من التحفظ والحذر، سيما بعد أن أحس «حامد» بالفارق الاجتماعي الكبير الذي يفصل بينهما، فأخذ يتجنبها ويقلل من فرص الاجتماع بها.

كان كل منهما يشعر نحو الآخر بشعور مبهم، لم تنجل غوامضه بعد، ولم يجد له أي منهما تعليلاً.

وفي أحد الأيام وكانا يجلسـان على مائـدة واحدة يستذكران دروسهما قالت له «هدى» وقد توردت وجنتيها خجلاً وحياءً وهي مطرقة إلى الأرض

ـ «إنني أشعر بأنك بعيد عني، خاصة في الآونة الأخيرة بتفكيرك وشعورك يوماً بعد آخر، حتى خيِّل إليَّ، وكأنك شخص غريب عليَّ، هل سببت صحبتي لك ضيقاً».

كانت تطلق كلماتها في حذر شديد حتى لا تفصح عما تكنه له في أعماقها ولكنه قال في لهجة قاطعة:

ـ «أبداً.. أبداً بالعكس إنني أحس بمنتـ..

وأمسك عن الكلام، فقالت تحثه وقد تعلقت أهدابها الطويلة بشفتيه:

ـ «بِمَ تحس؟»

فقال بتلعثم، وقد شعر بأن ساقيها قد احتكت بساقه وكأنها فعلت ذلك عمداً وصعدت إليه حرارة خفيفة:

ـ «أشعر بما تشعرين به نحوي . .»

فردت بخبث حواء وهي ترمقه بنظرات إغراء وقد أسبلت أهدابها:

ـ «أشعر بأنك، أخي وأكثر. .»

ثم وفجأة سقط من الكتاب الذي كان يحمله في يده شيء ما صغير فتولاه الارتباك وامتقع لونه فحاول أن يلتقطه إلا أنها كانت أسرع منه إلى ذلك، وعندما نظرت إلى ذلك الشيء استولت عليها الدهشة، وكان هو يراقبها بانفعال مبهور الأنفاس فقد كانت صورتها.

وسرعان ما زالت دهشتها وابتسمت ابتسامة رقيقة وأينعت قسماتها السعادة وتنهدت بارتياح عميق، فقد كانت تخشى ألا يلاقي شعورها نحوه أي صدى في نفسه، ثم تناولت قلماً وكتبت على ظهر الصورة إهداءً رقيقاً، ولما رفعت إليه عينيها رأته يبكي فقال لها:

ـ «كم أنت رقيقة، فقد كنت أخشى أن تغضبي مني على هذا التصرف!!»

ـ «كلا، فأنا الآن سعيدة لدرجة قد لا تتصورها».

ثم تطلع بنظراته بعيداً، وقال ساهماً وكأنه لا يعي ما يقول:

ـ «إن عقبة كبيرة تقف بيننا، فلا بد أن والدك يرسم لك طريقاً مغايراً، وأنا لا أرغب في أن أكون مصدر قلق له، خاصة وأنه كان يولي أسرتي عناية واهتماماً طوال هذه السنوات».

ـ «أنا لا يهمني المال، كما يهمني نداء قلبي وروحي، خاصة وأنك ستتخرج قريباً فإنني أفخر بك لأنك تكافح».

ـ «الواقع شيء، والأحلام شيء آخر».

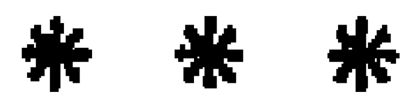
ـ «دعني أعالج الموضوع بطريقتي الخاصة، ولا شك أن والدتي ستقف بجانبي».

ثم تناول يدها، وهو قلق البال، واعتصرها بين راحتيه فقالت وهي تتأوه بدلال وغنج:

ـ «رفقاً بي، فإنني ضعيفة كما ترى».

فابتسم لها بعذوبة وتراخت قبضته قليلاً وأخذ يلثم يديها البضتين بشغف وحب ولما تناهت إليه وقع أقدام تركها وتشاغل بالتطلع إلى كتاب أمامه.

ودخل والدها فهبت «هدى» واقفة، فيما نقل بينهما نظرات قاسية تقدح شرراً، وعرف «حامد» جيداً معنى هذه النظرات القاسية فقام على الفور واستأذن في الخروج وخلفها مع والدها..



وفي إحدى الليالي، وكان الفصل صيفاً والحرارة شديدة الوطأة، لم تستطع هدى النوم، فظلت مضجعة في فراشها الوثير ونظراتها إلى السقف تفكر فيما ستؤول إليه حياتها مستقبلاً، تناهى إلى مسمعها صوت والدها الجهوري وهو يصرخ في وجه زوجته بغضب وحدة:

ـ «إنني لا أسمح بهذا التهور أن يحدث في بيتي. وأنت الملامة، على أية حال، وكأنك لا تدرين بالأضرار

التي تلحقني من جراء هذه العلاقة».

وساد صمت عميق للحظات تناهت إليها خلاله بكاء والدتها فخرجت إلى الشرفة على أطراف أصابعها تسترق السمع بعد أن تأكدت أن الكلام يخصها:

- «إنك، لا تفكر إلا في نفسك، ثم إنني لا أستطيع أن أتحكم في عواطفها ومشاعرها».

- «إنني لا أؤمن بهذه المهاترات، وهو لا يستطيع أن يهيىء لها أسباب الحياة السعيدة التي أنشدها لها».

فسمعت والدتها تقول بإباء وتحدٍ صارخ:

- «لقد طغى الجانب المادي في نفسك، على المشاعر الرقيقة الحالمة، وأنا لا أبحث إلا على سعادة ابنتي، وليس فيه ما يعيب على أية حال، فقد كنت أيضاً معدماً في يوم من الأيام..»

وشعر بالحقيقة الصارخة، تصفعه بكل قوة فقال وكأنه يتهددها:

ـ «هذا تطاول لا أستحمله».

وفيما لزمت الصمت أخذت الكلمات تنهال منه على غير وعي أو تفكير، وأخيراً انصرف غاضباً حانقاً وصفق الباب وراءه بكل عنف.

وخرجت «منى» ودخلت حجرة ابنتها على أطراف أصابعها ولما أجالت بصرها في المكان استغربت وجوده شاغراً، ولاحظت أن الهواء يعبث بستائر الشرفة المفتوحة على مصراعيها فاتجهت إليها مباشرة فوجدت ابنتها واقفة وأطرافها ترتعش فأحضرت إليها دثارها وألبستها إياه:

ـ «كنت أحسب أنك نائمة».

كذلك قالت والدتها وكأنها تريد أن تستشف ما يجول بخلد ابنتها وقد راعها أن قطرات الدموع قد نسجت حول أهدابها فردت وهي تمسحها بظاهر يدها وقد أشاحت بوجهها إلى الناحية الأخرى:

ـ «لقد كان الجو خانقاً».

ولم تعد بمستطيعة التحكم في مشاعرها فألقت برأسها

على صدر والدتها وأخذت تنتحب بصوت عال وصدرها يعلو وينخفض، وقد أدركت والدتها أنها كانت تستمع إليهما.

وشعرت والدتها بالإشفاق عليها ـ بعد أن أفصحت عن مشاعرها المكبوتة دفعة واحدة ـ وقد أيقنت أنها تحب «حامد» بكل جارحة فيها:

ـ «لا تزيدي في إيلامي، فقد عرفت ما شغل قلبك منذ زمن بعيد، وسوف أحقق لك السعادة التي تنشدينها مهما كانت التضحية..»

ـ ـ «لقد كنت واثقة من أنك سوف تفهمين، وأنا مدينة لك بالامتنان والشكر».

ـ «أجل، وسأقف بجانبك، ولا تقلقي نفسك بالتفكير في هذه الناحية».

فأخذت تقبل والدتها بحرارة ودموعها تسيل على خدها، ثم قادتها من يدها برفق فانصاعت إليها دون وعي، وهي سكرى من السعادة، حتى وضعتها في فراشها

وأحكمت عليها الغطاء وانصرفت.

وأحست «هدى» أخيراً بالسعادة الحقة والطمأنينة، ومن ثم فقد انزاحت عن صدرها تلك السحب القاتمة الكئيبة التي جثمت فوقه مدة طويلة، بعد أن ولّى ذلك الشيء من العذاب الذي كان يؤ رقها فأخلدت إلى النوم ورؤ يا سعيدة تتمثل لها وطيف ابتسامة سعيدة تتراقص على شفتيها اللذيذتين.

بنغازي ـ 12/ 7/ 1969 م

(*) نشرت هذه القصة في الأسبوع|الثقافي العدد (50) بتاريخ 25/5/1973 م.

الجميع يتأهبون للانصراف

وقف «إبراهيم»، ينظر مشدوهاً إلى ذلك الشجار العنيف الذي دب فجأة، عقب حوار اتسم بالحدة والانفعال بين بعض الطلبة.

ورأى من بعيد ـ وسط تلك المجموعة ـ شاباً أسمر، فارع الطول، ذا ملامح دقيقة متناسقة، يجاهد في تخليص نفسه من ذلك الحصار البشري المضروب حوله، ولم يستطع منه فكاكاً.

وتسارعت خفقات قلبه، وهو يتابع باهتمام وفضول

هذا الحشد البشري، والشاب يبدو في معركة غير متكافئة، فقال إبراهيم محدثاً نفسه:

ـ «لا بد أن يكون هذا الشاب عربي المحتد، فملامحه العربية لا تخطئها العين».

وغلب عليه التردد قليلاً، وهز منكبيه، بلا مبالاة ثم تساءل في حيرة:

ـ «.. ولكن هل أتركه فريسة بين أيديهم، فلا تأبى عليَّ الرجولة، أأترك أخي يفتكون به أمام ناظريَّ فإني، حينئذ، سوف لن أغفر لنفسي قط هذا التخاذل مهما كانت النتائج..»

وأخيراً قهر تردده واندفع كالسهم، ومن ثم فقد استطاع بقوة منكبيه أن يخترق الحصار ويصل إلى ذلك الشاب وينتشله من ذراعه بقوة، فانصاع إليه بدون تردد أو إبطاء وقد تهللت أساريره فرحاً، وكان العرق يتقاطر من جبينه.

فلما وقفا ـ في نهاية الأمر ـ في ناحية منزوية قال «عماد»

بلهجة عربية محببة وهو لمّا يزل لاهث الأنفاس:

ـ «هؤلاء الأوغاد، لقد ضيقوا عليَّ الخناق، وكاد أن يغمى عليَّ، لو لم تبعثك عناية السماء لنجدتي في الوقت المناسب».

ـ «لا بد لنا جميعاً أن نتعاون في خرق هذا الستار الحديدي الذي يفصل بيننا وبينهم بشكل أو بآخر».

كذلك قال «إبراهيم» في نبرات يغلب عليها طابع الثقة والاطمئنان، إلى المستقبل بالرغم من كل المعوقات التي تقف في طريق الإنسان العربي، نحو الانطلاق والتحرر سواء من داخل الوطن العربي نفسه أم من القوى الخارجية، التي تحاول إعادته للوراء ومن ثم وصول أية فكرة نحو التقاء الشعب العربي أو وحدته...

وتركزت نظرات «عماد»، عليه، وهو ينطق بهذا الكلام، وكأنه غير مصدق لما يسمعه، فلم يسبق له أن سمع ـ في هذه الجامعة ـ صوتاً عربي اللسان تنطلق

نبراته بمثل هذه البساطة والثقة اللامتناهية وأخيراً، وبعد أن أفاق من دهشته وذهوله رد في جذل صبياني بريء:

ـ «أخي، إذاً أنت عربي..؟!»

ـ «بلى!!»

ثم تعانقا بكل حرارة وصدق، فيما كانت الدموع تنهمر من عيني «عماد» فقال بعد أن كفكف عبراته:

ـ «لقد كدت أيأس من وجود مثلك بيننا، فجميع الطلبة العرب ـ هنا ـ متخاذلون ويسخرون مني فيما بينهم، وكدت أن أترك الدراسة لولا بقية من عزيمة صادقة..»

وهمَّ بأن يسأله عن سبب هذه المشاجرة، إلا أن «عماد» استطرد قائلاً تغمر محياه الفرحة العارمة:

ـ «لقد كنا نناقش قضية فلسطين، والعدوان الصهيوني الأخير على مخيمات اللاجئين العرب، وأحاول إقناع هؤلاء الشباب بأنه لولا تشجيع حكوماتكم

المتعاقبة لما جرؤت إسرائيل أن تطلق رصاصة واحدة . . »

ثم ران عليهما الصمت، إلى أن قطعه «إبراهيم» قائلاً :

- «- إسرائيل - يا سيدي - ليست قوية بالقدر الذي لا يقهر، إنما الضعف والوهن العربي هو الذي يضاعف، في نظرنا، من هذه القوة ومن ثم يعطيها حجماً غير حقيقي . . وعلى أية حال، فإن طريقتك الحالية ليست مثلى لإقناعهم» .

وحدق فيه «عماد» مذهولاً ، وقد ارتسمت الحيرة على ملامحه ثم قال :

- «وكيف أقنعهم إذاً؟ !»

وتشاغل «إبراهيم» بالنظر إلى مجموعة من الصور الفوتوغرافية المكبرة كان قد أخرجها من جيبه ثم قال :

- «أنظر جيداً، هذه هي نتائج العدوان وضحايا الغدر الإسرائيلي ، يستطيع كل منا أن يريها للطالب أو

الطالبة ـ كل على حدة ـ فنستطيع أن نقنعه ببساطة ومنطق هادىء يغلب عليه ضبط النفس».

ـ «فكرة رائعة فعلاً، وسننفذها فوراً، مع التوسع في علاقاتنا واتصالاتنا حتى مع الأفراد العاديين».

ـ «ولا تنسى أن نستقطب حولنا ونستفيد من أي عنصر عربي قدر الاستطاعة».

وفي هذه اللحظة بالذات، انطلقت ضحكة عالية ترددت أصداؤها في أرجاء القاعة الكبيرة، فانتفض «إبراهيم» فزعاً، والتفت إلى مصدرها، وبعد أن تمالك نفسه قال مشيراً بإيماءة من رأسه إلى فتاة شقراء، تقف بين مجموعة من الطلبة من جنسيات مختلفة، يتعابثون في غير ما حياء، ومن آن لآخر كانوا يرمقونهما بنظرات تقدح بالشرر والحقد، والفتاة تبدو مختالة بجمالها وسحر عينيها الزرقاوين، وتأثيرها الواضح على من حولها:

ـ «من هذه الفتاة؟!»

ـ «سوزان، أمريكية، وهي يهودية الأصل، تؤلب عليَّ الطلبة هنا وتسخر مني».

ـ «دعها لي ولا تثر حفيظتها، فإني سوف أتدبر أمرها».

ـ «كيف، ثم كن حذراً منها فهي شرسة الطباع..».

ـ «دع كل ذلك الآن وستعرف كل شيء في حينه..».

ثم شرد «إبراهيم» بتفكيره قليلاً، وفكر في الإمكانيات الضخمة التي يمتلكها العرب فيما لو استطاعوا بصدق وإخلاص توظيفها في خدمة المعركة، لما استطاع كل عربي أن يقف مثل هذا الموقف المخزي الذي نشعر فيه، في اليوم الواحد، بأننا نموت مئات المرات، لدرجة أننا في بعض الأحيان نتمنى لو أن الأرض انشقت وابتلعتنا فهذا أرحم على الأقل!!».

ـ «تصور، لقد نسينا، في غمرة الحديث أن نتعارف».

ـ «لا تثريب عليك، يا أخي . . »

وبعد أن تم تعارفهما افترقا، فيما كانت نظرات سوزان تلاحق «إبراهيم» يندلع منها الحقد، تكاد تخترق ظهره، وكأنها تتوعده إلى أن اختفى.

* * *

ومنذ ذلك الحين، أخذا يعملان بصمت وهدوء دون أن يلفتا إليهما الأنظار ومن ثم فقد أخذ يزداد ويتنوع نشاطهما، وضاعفا من دائرة معارفهما بين الطلاب، بل وامتد الأمر حتى خارج هذا النطاق، فاستطاعا ـ بفضل الإرادة والتصميم الصادقين ـ أن يجدا أذناً صاغية لدى غالبية من اتصلوا بهم، وإن كان الصوت العربي في أوساط الشعب الأمريكي مفقوداً لكثافة الدعاية الصهيونية . .

* * *

وفي إحدى أمسيات «حزيران» الكئيبة اجتمع شباب عربي يمثلون كافة الأمصار العربية ونظمها باختلاف

مذاهبها، وعندما اكتمل عددهم قال أحدهم معلقاً على الأحداث الأخيرة وقلبه يكاد يتمزق:

ـ «لقد أخذ العدو يتمادى في عدوانه علينا، لدرجة أنه دخل إحدى عواصمها متجولاً في شوارعها ـ الملأى بالبارات وعلب الليل، بكل اطمئنان، ومع هذا فلم يحرك الشعب العربي ساكناً، ولم تنطلق في أثره ولو رصاصة خاطئة، وكأنما الأمة العربية عقيمة من الرجال».

ـ «لعل هذه الحقيقة غائبة عن أذهان العرب، لأنهم لا يولون هذه القضية أهمية تذكر».

ـ «ولكن يجب أن نتوقع الكثير، طالما أننا أمة مشتتة، تغري أية دولة مهما تضاءل شأنها بالاعتداء علينا».

وقال أحدهم، في اندفاع وحماس شديدين وقد احتقن وجهه من الغضب، وكان شاباً شديد الاعتزاز بعروبته على الرغم من كل النكسات، فيما اتجهت إليه

أنظار الجميع المشبعة بالعطف والحنان سيما وأنه غضّ الإهاب:

ـ «يجب أن نكون أمة واحدة، فهذا وحده كفيل لردع من تسول له نفسه استباحة حرماتنا».

وأمسك بطرف الحديث، شاب آخر، مؤكداً قوله بإشارة من سبابته:

ـ «علة المواطن العربي تكمن في أننا لا نوفر له المناخ الملائم ليقول كلمته دون أن تتعقبه أجهزة المخابرات، فلنبدأ على الأقل ـ وهذا أضعف الإيمان ـ بوحدة اقتصادية، ونتدرج بها حتى يجد المواطن العربي نفسه ـ في نهاية المطاف ـ قد اندمج بالوحدة دون أن يشعر بذلك..»

ـ «لعله يقصد على غرار ما فعلته أوروبا الغربية منذ خمس عشرة سنة، عندما أنشأت ما يسمى بالسوق الأوروبية المشتركة، وهي الآن تريد أن تتحد سياسياً بعد نجاح التجربة الاقتصادية».

وتصدى للحديث شاب آخر، كان يجاهر بمناهضته للحكم الرجعي في بلاده:

ـ «ولكن تجربتنا نحن في الوحدة أعمق وأرسخ قدماً من أية تجربة أخرى، والدليل على ذلك هو الرباط التاريخي والديني..»

وأخيراً نهض «عماد» وتوجه صوب إبراهيم الذي كان لائذاً بالصمت طيلة الوقت متلذذاً بهذا الحوار الممتع ويتابعه بشغف فقال له:

ـ «وأنت يا «إبراهيم» لم تقل شيئاً لنا بعد، فإن رأيك من الأهمية بمكان».

ورأى أنه محاصر بنظرات المحيطين به، شاخصة تنتظر إجابته بلهفة فقال في نفسه: «إن صدر الإنسان العربي قد ضاق وعاءه من احتباس الكلمات الصادقة البناءة، وطفح به الكيل من جراء عدم قدرته على تحريك لسانه وبالتالي الإفضاء بما يختلج في قلبه وضميره..»

وبعد فترة قال وقد ران الصمت على الجميع:

- «إني أفكر، فقط، في أن هذا الحوار والنقاش الهادف لو كان قد جرى في إحدى الدول العربية المعروفة بميولها الاستعمارية لكنا جميعاً داخل أحد السجون أو الأقبية السرية..»

وتبادل الجميع نظرات ذات مدلول، فهو يقول الحقيقة بكل أبعادها، ثم قالوا له بصوت واحد:

- «ولكن نريد رأيك أنت ـ بالذات ـ لا سيما وأن بلادك تمثل الانتفاضة العربية الصادقة، ومن ثم تستقطب حولها الشعوب العربية المغلوبة على أمرها».

- «إنني أركز ـ هنا ـ على إعطاء المواطن حريته ـ قولاً وعملاً ـ ثم نتركه يتصرف بوحي من ضميره ومصلحته القومية، ولا نخشى شيئاً فأي تصرف يصدر منه سوف يكون وليد الحكمة والتعقل..».

فقال الجميع في نفس واحد:

- «ومتى يتحقق هذا المطلب الغالي؟!»

ـ «سوف تتحرر الشعوب العربية ـ إن عاجلاً أو آجلاً ـ وتتم وحدتها ولو بحد السيف.»

كذلك قال «إبراهيم» فيما أخذ الجميع يتأهبون للانصراف الواحد تلو الآخر وكان الليل قد اكتهل وقد بدا عليهم التعب والإعياء، بعد هذا الحوار، الذي تميّز بالحدة والعنف حيناً وباللين والهدوء حيناً آخر.

وفيما بقي «إبراهيم» بمفرده آخر الأمر، تمدد على فراشه وقد شرد بتفكيره بعيداً وهو ينظر إلى خريطة الوطن العربي وهو مقسم إلى جزر ودويلات متفرقة يهيمن عليها الجهل والفقر، مكبل الخطى، فدعا الله ـ وقد خالجته أمنيات عذبة ـ أن يحققها لوطنه العربي حتى يستطيع أن يقهر عوامل التخلف ودرأ الخطر عنه، ويصبح قوياً متحداً، متماسكاً..»

وطافت على شفتيه ابتسامة وهو ما فتىء شاخصاً إلى الخريطة المعلقة أمامه وقد رسم عليها خطوطاً وكأنه يريد أن يقربها من بعضها ـ كما يتمنى، ثم تثاءب في كسل واستسلم للنوم..

لاحظ «إبراهيم» أن «سوزان» قد أخذت تتودد إليه، وتتقرب منه، بعد أن لاحظت أن الجميع بدأوا ينصرفون عنها غير عابئين بها، ومع هذا فقد كان يعاملها برقة وعطف - وإن كان تحدياً صامتاً يجري بينهما - ولم يحاول أن يظهر لها العداء لا سيما أنه و«عماد» قد لقيا كل تفاهم وإصغاء من كل من تحدثوا إليهم من أفراد الشعب الأمريكي.. وكانوا لا يخفون عطفهم على قضية فلسطين، بعد أن تفهموا طبيعة الصراع الدائر في هذه المنطقة من العالم، لأنهم كانوا يستقون الأخبار من مصدر واحد فقط.

كان كل الطلبة العرب - بلا استثناء - يعانون من نقص وعجز الإعلام العربي، حتى السفارات، والهيئات العربية الدبلوماسية، لم تمد لهم العون أو تزودهم بآخر تطورات قضية فلسطين في حين أن الملصقات وكتب الدعاية الإسرائيلية منتشرة في كل مكان، فضلاً عن الزيارات المتكررة وإلقاء المحاضرات..

ومع هذا فقد انتشى إبراهيم فرحاً وهو يرى نتيجة

عمله الدؤوب وقد تكلل بالنجاح، على الرغم من قلة الإمكانيات وافتقاره إلى الأخبار والنشرات . .

* * *

ولما لاحظ «عماد» علاقة «سوزان» بإبراهيم وتقربها إليه ـ دون أن يصدها ـ أثارت هذه العلاقة حفيظته، ولكنه لم يستطع أن يخفي عليه هذا الأمر فقال له ذات مرة :

ـ «إني في الواقع لا أنظر بارتياح إلى علاقتك بـ «سوزان» .

وأدرك «إبراهيم» ما يرمي إليه، فقال له وهو يربت على كتفه :

ـ «لا تخف، واطمئن فإني أستطيع أن أصمد أمام سحرها، فأنا لست ضعيفاً إلى هذا الحد، وسترى ذلك قريباً» .

ـ «إني أخشى تطور هذه العلاقة، واسمح لي بهذا التدخل، في أمورك الخاصة» .

ـ «لا عليك يا صديقي، فسوف أعالج هذا الموضوع بطريقتي الخاصة، ولن تترتب عليها ثمة أضرار لدرجة أنني سأجعلها أداة طيّعة في يدي. .»

ـ «على أية حال، الأمر متروك لك. .»

* * *

وفي أحد الأيام شعر «إبراهيم» بآلام شديدة في بطنه فأخذ يتلوى، وقد تراءت إليه المرئيات مهزوزة غير واضحة المعالم، وكأنما وضعت ثمة غشاوة على عينيه، وقد تصبب العرق من جبينه.

ولاحظ «عماد» شحوب وجهه وامتقاعه، وهو لا يكاد يتمالك نفسه مترنحاً، فهرول إليه قبل أن يقع واستطاع إسناده حتى تمالك نفسه قليلاً، والتقط أنفاسه اللّاهثة بصعوبة بالغة ثم قال بصوت واهنٍ:

ـ «أسرع بي إلى المستشفى فأنا متعب جداً. .»

ـ «حاضر».

وما إن نقله إلى المستشفى، وفحصه الطبيب على وجه السرعة حتى بادره الأخير قائلاً:

- «حسناً فعلت، فقد جئت في الوقت المناسب، ويجب إجراء عملية الزائدة الدودية حالاً - فحالته خطيرة ولا تحتمل الإبطاء».

- «كما ترى يا دكتور، فالأمر راجع لك».

- «بإمكانك أن تنتظر في الردهة الخارجية، ولا تجعل القلق يفترس أعصابك، فالأمر بسيط للغاية..».

* * *

أخذ «عماد» ينتظر خروج الدكتور بلهفة، فلم يستطع أن يتمالك أعصابه، تتناوشه الهواجس السوداء ويبتهل إلى الله في أعماقه - أن يكلأ «إبراهيم» بعنايته ورحمته.

وخالجه في تلك الفترة الحرجة شعور غريب نحو صديقه «إبراهيم» وأحس بأنه يحبه ملء قلبه، وكان هذا الشعور قد حدث له فجأة ووليد لحظته، واستغرب

كيف أن ذلك لم يعتمل في قلبه من قبل، ويتدفق بمثل هذه القوة.

وأخيراً، وبعد فترة خيلت إليه دهراً، أطل عليه الطبيب بمئزره الأبيض يبدو تعباً مكدوداً تلتمع حبات العرق من جبينه، فهرع إليه، وقبل أن يبادره بالسؤال قال الطبيب وقد أينعت على وجهه ابتسامة خفيفة:

ـ «حسناً. . لقد انتهى كل شيء على ما يرام».

ـ «شكراً يا دكتور، وهل أستطيع أن أراه؟»

ـ «في الوقت الحاضر لا أسمح بذلك، تستطيع أن تراه غداً».

وشكر الدكتور بحرارة ومودة، ثم انصرف جذلاً، وأحس بالراحة، وكأن ثمة شيء ثقيل الوطأة قد انزاح عن كاهله، فإن «إبراهيم» شخصية قلما يصادف المرء مثلها.

* * *

كانت «سوزان» في تلك الفترة تشعر بالقلق وعدم الاستقرار، وقد انتابها شعور غريب نحو «إبراهيم» لم تستطع تعليله، وأكثر ما لفت نظرها إليه هو شدة إيمانه وثقته بنفسه وصلابته التي لا تعرف اللين أو الوهن، فقد استطاع بمنطقه الهادىء ونشاطه الدؤوب أن يجعلها تدرك إلى أي مدى هي خاطئة في نظرتها إلى القضية العربية، لا سيما وأنها تتحامل بشكل متعصب أعمى على الحقيقة وتحجبها عن عينيها، لأنها تستقي معلوماتها من جانب واحد فقط.

وعزمت في نفسها على أمر خطير، من شأنه أن يغير حياتها برمتها، بعد أن اتضحت لها الحقيقة المجردة بكل أبعادها، وأن يبقى ذلك الأمر سراً ولن تطلع عليه إلا «عماد» فإنه سيكون ـ بلا شك ـ مفاجأة سارة وغير متوقعة لإبراهيم.

إن شخصية «إبراهيم» القوية هي التي جذبتها إليه وجعلتها تقع أسيرة له، وكأنه قد سحرها مما جعل أصدقاءها يشنون عليها حملة قوية، وهي التي كانت

تكرهه وتحقد عليه ـ في يوم من الأيام ـ لدرجة الموت، ولكنها أعرضت عنهم، ولم تأبه بما كانوا يقولونه عنها، فهي واثقة مما أقدمت عليه، ولن يثنيها عن عزمها شيء مطلقاً.

* * *

وتقاطر على غرفة «إبراهيم» جميع زملائه في الكلية ـ حتى ممن كانوا يناصبونه العداء ـ فقد كان محبوباً من الجميع لدماثة خلقه وطيبة نفسه، وكانوا يتمنون له الشفاء، لأنه كان شعلة متقدة من النشاط والحيوية.

إلا أن لسانه، انعقد فجأة من الدهشة، وهو يرى في أحد الأيام «سوزان» وقد جاءت لعيادته تحمل في يدها باقة من الورد، وفي يدها الأخرى مظروفاً أزرق تلوح به في يدها.

واتجهت إلى سريره تمشي الهوينا ونظراته الحائرة لا زالت معلقة بها، ثم قبلته في جبينه وما فتئت، خفقات

قلبه تتسارع وقد توجس ـ في نفسه ـ خيفة من هـذه الزيارة غير المتوقعة.

وبكل بساطة وبلا أدنى تكليف جلست بجانبه على السرير بعد أن وضعت باقة الورد جانباً ثم قالت:

ـ «أراك مستغرباً ولك العذر على أية حال!!».

كان لا يزال مذهولاً فوقع المفـاجأة أكبـر من أن يصدق، وهي التي كانت في يوم من الأيام تشن عليه الحملات المسعورة التي تسيء إليه وإلى عروبته.

قال إبراهيم:

ـ «إني لا أصدق ما أرى، ومع هذا أصارحك القول بأنني مستاء منك جداً».

ـ «كل شيء سيتغير، فقد ساقتني قدماي إليك بدون وعي مني وكأن إرادتي قد سلبت».

ـ «دعيك من هذه الأساليب، فإني متمرس بالنساء ولن تنطلي عليَّ الحيلة».

ولاذت بالصمت، فيما أسبلت أهـدابها فجـأة وقد التمعت تحتها الدموع ثم استطردت:

- «الواقع أنني لم أستطع مقاومة ما يعتـورني من شعور نحوك، وكنت أتذرع بالصبر، طوال الـوقت، ولكن عندما افتقـدتك بـالكلية وعـرفت أنك مـريض في المستشفى خانتني قواي ولم أعد متمالكة لنفسي وانهارت مقاومتي فجأة وتأكدت بأنني لا أستطيع الحياة بدونك حتى وإن كنت تناصبني العداء، فيكفي أن أراك كل يوم وأتحدث إليك في بعض الأحيان».

وانحدرت دموعها مدراراً، فيما كان «إبراهيم» يراقبها بصمت وذهول ثم قال:

- «لا داعي للبكاء، فأنا أغفر لك إساءتـك إليَّ، على أن تلتزمي جادة الصواب مستقبلاً».

- «صدقني إنني أعني ما أقول، فمشاعري نحوك تفوق كل تصور، ولا داعي لأن أخبرك بأنني قد عانيت الكثير في سبيل كبتها ووأدها».

ـ «ربما لا تستطيعين معرفة حقيقة الصراع العربي مع الصهيونية، وأنا لا أستطيع التخلي عن هذه القضية ليقيني بعدالتها حتى لو أريق دمي في سبيلها. مهما وضع في طريقي من مغريات، فإننا ـ كما ترين ـ نقف على طرفي نقيض».

وفي هذه اللحظة بالذات سقطت الرسالة التي كانت تحملها على الفراش بجانبه مباشرة، فالتقطها بأصابع واهنة وقرأ اسمه على غلافها ففضها بكل لهفة وعجلة حتى كادت تتمزق ثم استأذن منها ريثما يقرأ الرسالة.

كانت من أحد أصدقائه، وقد تضوعت برائحة تراب الوطن، ذلك التراب الذي يتمنى في هذه اللحظة بالذات أن تطأه أقدامه.

كان صديقه في تلك الرسالة يروي له معالم الثورة الثقافية التي انبثقت في طول البلاد وعرضها لصنع حياة أفضل للإنسان العربي، عبر نضال مستميت لا يعرف الهوادة للقضاء على التخلف..

كانت أساريره في تلك اللحظات الدقيقة تنضح بالحب، ويتمنى مخلصاً إنهاء دراسته حتى يتأتى له المشاركة بنصيب متواضع في هذه الحملة وأن يكلل الله مراميها بالنجاح.

ثم تهلل وجهه بابتسامة طيبة وقال وهو يطلق آهة قوية ـ وكأنه يحدث نفسه:

ـ «يا إلهي.. أخيراً تحقق الحلم، ثورة ثقافية، ما أروع هذا، إن فرحتي لا يعادلها شيء الآن، كان يجب أن يكون ذلك منذ زمن، ولكن لم يفت الأوان بعد على أية حال».

وكان في غمرة فرحته ونشوته بهذا الحدث العظيم قد نسي تماماً أن بجانبه ثمة فتاة تنظر إليه بولهٍ وإعجاب فقال معتذراً:

ـ «أستميحك عذراً، فقد كان أسعد خبر سمعته منذ انبلاج الثورة..»

ودبت في قلبها غقارب الغيرة العمياء، لاعتقادها بأن

هذه الفرحة العارمة ربما تقف وراءها امرأة ما، فقالت بخبث محاولة أن تستشف ما حدث:

- «هل تستطيع أن تترجم لي ما حدث؟»

- «أجل يا سيدتي.. ولكن هل تدركين معنى الثورة الثقافية، فأنظار العالم مشدودة بلا شك وبكل عنف إلى ما يجري فوق هذا الثرى الغني بأندر الرجال وأقواهم.. فأنت تعيشين في مجتمع يمثل قمة الانحلال والتفسخ..»

- «ولكن ماذا يعني هذا بالنسبة إليكم؟!»

- «إنه يعني الشيء الكثير، للقضاء على الفساد بكل أبعاده، ويسعدني أنني سأتخرج خلال الأسابيع القادمة، وأطير فوراً لأشارك شعبي فرحته وطموحه بهذه الثورة العارمة..»

- «إبراهيم» لا تعذبني أكثر من ذلك، فإنني أكاد أفقد صوابي من تجاهلك لي، فهلا ترفقت بي ويكون لي نصيب من اهتماماتك!!»

وتطلع إلى عينيها الزرقاوين، وقـد امتلأت مـآقيها بالدموع وعجز عن فهم ما يمور في أعماقها المتقلبة فرد بسخرية مريرة:

ـ «أحقاً ما تقولين؟!»

وفي هذه اللحظة دخل «عماد» وما إن رآها جالسة حتى هتف:

ـ «إيمان» أأنت هنا، فقد كنت أبحث عنك طوال الوقت!»

فالتفت إليه، فيما امتدت يدها تمسح دموعها ولاذت بالصمت.

كان «إبراهيم» أثناء ذلك ينقل بصره فيما بينهما غير مصدق ما يجري أمامه فقال متسائلاً نفسه:

ـ «من هي «إيمان» هذه؟»

ثم قال بصوت منخفض:

ـ «هلا أمطت اللثام عن هذه الأسرار؟»

وتبادل «عماد» و«إيمـان» نظرات ذات مغـزى، ثم انبرت الفتاة قائلة في لهجة واثقة:

- «أنا «إيمان» يا سيدي، ألم أقل لك منذ حين أنني قد تغيرت؟»

- «غير معقول ما أسمع!!»

- «لقد أشهرت «إيمان» إسلامها في سفارتكم أمامي منذ مدة واتفقنا على كتمان الأمـر عنك حتى يكـون مفاجأة لك»

وانهالت الدمـوع من عينيه حـارة ملتهبة، فجعلهـ تتدفق عبر خديه الشاحبين وقال:

- «هلا ترفقتما بي، فإن قلبي لا يحتمل كل هذه السعادة دفعة واحدة..»

ثم قـامت واتجهت إلى النافـذة، وأزاحت الستـار قليلاً، فتراءى لها الأفق الواسع بلا نهـاية عبـر تلك النافذة ثم قالت وكأنها تستطلع ما في ضمير الغيب:

ـ «لقد كنت تائهة فعلاً بـلا إيمان أو مبـدأ، ولم أستـطع أن أدرك أين تكمن الحقيقـة إلا في الآونـة الأخيـرة عندمـا عـدت إلى النبـع الحقيقي الـذي لا ينضب: الإسلام، فقد درست كل شيء يتعلق به عن اقتناع».

فأمسك «عماد» طرف الحديث عندما قال:

ـ «تصور لقد استطاعت، خلال فترة قصيرة أن تفند جميع الأباطيل والأكاذيب التي كـان يبثها العـدو عن طريق أعوانه هنا ومن ثم فقد استقطبت اهتمام الشباب فإنها ـ بحكم تكوينها ـ أقدر على مخاطبتهم».

ـ «حسناً فعلت، ولن يبخل عليها عربي بمساعدة ما في سبيل إظهار الصورة على حقيقتها لا كما يجري تزييفها، فقد آن للشعب الأمريكي أن يتخلص من هذا الأخطبوط الملتف حوله».

كذلك قال إبراهيم ثم أسبل عينيه وكأنه يـريد أن يستسلم للكرى.

ـ «نستودعك الله الآن، ونـدعك لتنـال قسطاً من الراحة».

ـ «اهتم بإيمان، فإني قلق عليها».

ـ «لا تقلق من ناحيتها، فهي في رعايتي».

ثم أحكمت عليه الغطاء، بعد أن استسلم للنوم، وانسحبت على أطـراف أصـابعهـا وأغلقت الحجـرة وراءها.

كانت فترة النقـاهة بـالنسبة لإبـراهيم قيّمة للغـاية واستغلها إلى أقصى حد، فكان يوالي الاطلاع على معالم الثورة الثقافية التي اجتـاحت بلاده من خـلال الصحف والمجـلات التي كـانت تنهـال عليـه من أصدقائه، ومن ثم فقد استطاع أن يكوّن فكرة واضحة عن أبعاد هذه الثورة العملاقة.

وبقي على ملل إلى أن غادر المستشفى نهائياً.

وفي صبـاح أحد الأيـام ـ وقد تقـرر فيـه تـوزيـع

الشهادات على الخريجين بعد انتهاء الدراسة ـ تسلم إبراهيم شهادته الجامعية، فقبلها باعتزاز وضمها إلى صدره فرحاً.

وأخذ يعد نفسه للسفر متعجلاً الأيام والساعات للعودة إلى الوطن. وبينما هو في حجرته قلقاً يذرعها جيئة وذهاباً إذ قرع الجرس فجأة فانتفض وهرول مسرعاً نحو الباب.

ـ «لقد قلقت عليك وخشيت ألا تحضر».

ـ «وهل يعقل أن تذهب دون أن أراك».

وفجأة دخلت «إيمان» وكانت تحمل حقيبة للسفر فنظر إليها «إبراهيم» مذهولاً وبادرها على الفور:

ـ «ماذا تفعلين أيتها الحمقاء، إلى أين أنت ذاهبة؟»

ـ «إني ذاهبة معك، فهل من المعقول، أن أدعك تستأثر بالثورة الثقافية وحدك، فيجب أن أكون بجوارك، فلم يعد ثمة شيء يربطني بأرض النفاق هذه، أريد أن أعيش فوق أرض ملتهبة دائماً بحرارة الإيمان

والصدق».

وسكتت قليلاً ثم استطردت بدلال وقد اشرأبت إليه بنظراتها الساحرة العطوفة:

ـ «أم ترى أنك في غير ما حاجة إليّ؟»

ثم اندفع إليها وتعانقا بكل حرارة وقوة وقد غاصت من مآقيهما الدموع.

ـ «إني أحتاجك بملء قلبي ووجداني..»

وفيما كانا يتعانقان، أحس «إبراهيم» بالسعادة وقد أثلجت قلبه وضميره، فإنه يستطيع الآن، بناء الحياة من جديد بعد أن وضحت أمامه الرؤيا ومن ثم انزاحت كل المعوقات التي كانت تقف في طريقه يوماً من الأيام وتحد من انطلاقاته البناءة نحو حياة أفضل..

طرابلس ـ 17/ 7/ 1973 م

(*) نشرت هذه القصة في الأسبوع الثقافي العدد (55) في 1973/6/29 م.

المأزق

تمددت نظراتي إليها في اشتهاء ورغبة، كأنني أستمرىء التحديق في هذا الجمال، وأنا أشعر بمزيد من السعادة، وتطوف بخيالي المريض المراهق أمنيات في أن يجمعنا لقاء معاً منفردين . .

كانت جالسة بجانبي في كرسي الطائرة لا يفصلني عنها سوى بضع ياردات وتعمدت في حركة لا تخلو من الخبث أن تلاصق كتفي زندها العاري، فيما تسللت إليها نظراتي القلقة الحائرة في حذر وترقب، لأرى وقع هذه الحركة في نفسها وخيل إليَّ بادىء الأمر، أنها قد استسلمت لها،

فسرى فيَّ دفء غمر كياني بالسعادة واختلجت في نفسي شتى الانفعالات، وعبيرها المتضوع من أعطافها اللدنة يطوقني من كل ناحية. .

ولما لاحظت سكوتها ابتسمت بيني وبين نفسي ومن ثم فقد اعتبرته نصراً لي في جولتي الأولى معها فداخلني الغرور. .

وبعد لحظات قصيرة انتفضت على قولها في رقة وقد فطنت إلى غرضي فيما يبدو وقد سحبت ذراعها:

ـ «عفواً. .»

وحدجتني بعدها بنظرة زاجرة مؤدبة، فجاد جبيني ببعض القطرات الباردة، وغمرتني رعشة خفيفة، فأجبت وقد شردت نظراتي بعيداً كيلا تلتقي بنظراتها القوية:

ـ «متأسف».

ثم تخاذلت على الكرسي. . انكمشت في يأس وتخاذل وقد تبخرت من ذهني كل القصص التي اختزنت في

ذاكـرتي، عبـر سنـوات طـويلة، عن فتيــات أوروبـا واستجابتهن السريعة للغزل والحب. .

وبعد فترة أردت أن أعيد الكرة، ولكن في صورة أخرى مهذبة فقلت وأنا أمد لها بعلبة السجائر:

ـ «هل تدخنين؟»

فمدت يدها والتقطت سيجارة ثم قالت:

ـ «شكراً».

غير أنني لاحظت أنها كثيرة السعال، فقالت في حياء وهي تبتسم وقد احتقن وجهها بحمرة خفيفة:

ـ «الحقيقة أنني لا أميل إلى التدخين كثيراً. .»

ـ «إنها مسألة تعود ليس إلا. .»

وهكذا انفتح باب الحديث بيننا، فتطرقنا إلى مواضيع شتى، فزال عنها تدريجياً ذلك الاكتئاب والتحفظ الذي بدا عليها فترة من الزمن، ومن حين لآخر كانت ترمقني بنظرات هادئة ترشح بالود والارتياح. .

وأخيراً هبطت بنا الطائرة، وقبل أن أغادر أرض المطار قلت وأنا ألوح لها بيدي، وقد تمنيت لو طالت بنا الرحلة لأزيد من استمتاعي بهذا الجمال:

- «إلى اللقاء..»

فابتسمت، فيما أخذت ترفع يدها مشيرة إليَّ بعد أن أزاحت خصلة من الشعر الأشقر تهدلت على جبينها الأبيض بعد أن اغتالت جميع المشاعر القذرة التي اختلجت في ضميري نحوها.

وأخيراً أفقت من تخيلاتي، عندما وجدت نفسي واقفاً أمام إحدى الواجهات الزجاجية الكبيرة أتأمل ما بها.

وعندما استقبلتني تلك المدينة الكبيرة أحسست فيها بالضياع يكاد يبتلعني بعد أن شعرت بالملل والضجر وأنا أتسكع عبر تلك الشوارع اللامعة شاعراً بفظاعة الوحدة وكم تمنيت لو أنني أعرف ثمة إنسان واحد يذهب عني هذه الملالة سيما وأن كل فرد يقابلني يكون متأبطاً ذراع رفيقة أو صديقة له، إلاّ أنا أذرع طرقات المدينة هائماً على

وجهي كالشريد . .

وفجأة طافت هي بذهني . . وتمنيتها أن تكون معي، رفيقتي . . فتخيلتها وهي تسير معي جنباً إلى جنب ويدي ممسكة بذراعها في حنان ومودة . .

وأخيراً أفقت من تخيلاتي، عندما وجدت نفسي واقفاً أمام إحدى الواجهات الزجاجية الكبيرة أتأمل ما فيها.

وبخطوات حذرة، دخلت المتجر وابتعت رباط عنق، وطلبت مني البائعة أن أذهب لسداد المبلغ في الخزينة.

ولما وصلت إلى هناك أخذت أحملق في الموظفة القابعة وراء تلك الآلة الحديدية، مشدوهاً وقد تعلقت نظراتي بها وقلت في نفسي: «هل هي حقاً كاترين، أم تراني واهماً؟»

وعندما جاء دوري، ووقفت أمامها مباشرة نظرت إليَّ طويلًا ثم ابتسمت في مودة، وهي تحييني بحرارة وصدق ثم قالت متسائلة:

ـ «كيف وجدت بلادي؟»

ـ «مدهشة، لولا الفراغ والوحدة. .»

ثم قالت بكلمات ذات معنى:

ـ «إنها مسألة تعود ليس إلّا. .»

وتذكرت هذه العبارة فوراً، فيما اندفعت وهي تضحك ببراءة وصدق، فقلت بشعور الوحدة والحاجة إلى إنسان ما:

ـ «هل تتناولين كأساً معي؟»

فتلكأت في الإجابة قليلاً، وبدت على سيمائها دلائل الحيرة والتردد إلا أنها قالت أخيراً في لهجة رقيقة:

ـ «بكل سرور. .»

ولما كان موعد إقفال المتجر في المساء وشيكاً فقد انتظرتها حتى انتهت من عملها ثم خرجنا سوياً.

* * *

وعندما جلست إلى المائدة في ذلك البار الصغير

وانسكب نور خافت على وجهها، وقد انتشت من الخمرة قليلاً، وهي جالسة في استرخاء ترميني من حين لآخر بنظرات ناعسة وقد توهجت عيناها ببريق أخاذ.

وظلَّلنا الصمت، فيما كنت أحتسي كأسي ببطء، وأخيراً قالت وهي ترفع الكأس إلى شفتيها الناضجتين:

- «هل تعرف لماذا كنت في زيارة بلادكم؟»

وأومأت لها برأسي نفياً ثم استطردت:

- «لقد عشت هنا في تجربة حب فاشلة، فآثرت الابتعاد عن مسرح الحوادث التي شهدت حبي ونهايته..»

ثم أخذت الموسيقى في العزف، فتقاطر الراقصون على الصالة الكبيرة فدعتني إلى الرقص فامتنعت بشدة وقد احمر وجهي فإنني لا أعرف الرقص، غير أنها لم تحفل بذلك فقامت وسحبتني من يدي وهي لا تكاد تتمالك نفسها، ثم أخذت يدي وأحاطت بها خصرها والتصقت بي، وشعرت بأن نهديها يلامسان صدري في رفق، فسرت رعشة خفيفة دافئة وجسدها الشهي ينقاد إليّ طواعية ومن

حين لآخر كانت قدماي تدوسانها فتغرق بالضحك، مما جعلني أشعر بمنتهى الخجل.

واستطعت في النهاية أن أخلص نفسي منها بصعوبة بالغة وارتميت على مقعدي وأنا كسير النظرات وقد تقاطر مني العرق، والراقصون يرمونني بنظرات الفضول والاستغراب، ثم تبعتني، فلاحظت عليَّ بوادر الغضب وعدم الارتياح وقد ارتعشت شفتاي ثم جلست بمحاذاتي مباشرة، ورفعت وجهي إليها بطرف سبابتها ثم احتضنته بين راحتيها البضتين وقالت:

- «لا تكن حاد المزاج وتفسد علينا هذه السهرة، وتأكد بأنني سعيدة معك أيها الطفل الكبير..»

قالت هذه العبارات في مودة أذابت كل الغضب والجمود الذي اجتاح نفسي.

وفي منتصف الليل تقريباً وقد أخذ رواد الحانة يغادرونها اقترحت عليها تكملة بقية السهرة في حجرتي بالفندق فلم تمانع.

وما إن دخلت الحجرة حتى نزعت بعض ثيابها ثم قالت وقد تمددت على السرير:

- «إني متعبة وأريد الراحة».

فاقتربت منها بهدوء وتمددت بجانبها أيضاً ثم قبلتها ما بين شفتيها المنفرجتين، وأنفاسي الحارة تلاحقها في كل موضع من جسدها فكانت تتأوه وتتلوى كالأفعى، ثم طوقتها من خاصرها فانجذبت إليَّ في غير ما عناء، وبعد ذلك مددت يدي لمفتاح الأباجورة وأطفيته.

ومنذ ذلك الحين أخذت علاقتي بها تتوطد فكنا نقضي أغلب الأمسيات معاً أو نطوف على الأماكن الشهيرة في عطلة نهاية الأسبوع.

وازداد تعلقي بها، فكنت لا أستطيع أن أمضي يوماً دون أن أراها أو أتحدث إليها، فقد كانت تشدني إليها بعبارات الحب الرقيقة وابتسامتها الدافئة العريضة وهي تمثل إليَّ دعوة صريحة إلى الحب. .

غير أني لاحظت في الأيام الأخيرة أنها بدأت تعرض

عني وتهجرني فكانت دوماً تحاول التهرب مني بعذر أو بآخر، وتتعمد في لقائي معها البرود واللامبالاة.

وعذبني الإحساس بالحنين إليها.. فأصبحت قلقاً تتنازعني الهواجس والأفكار السوداء، بيد أنني قررت الصمود، وفي أحد الأيام رن جرس الهاتف في غرفتي وسمعت صوتاً ناعماً ينساب إليَّ عبر الأسلاك السوداء، وفي عذوبة ورقة وإن بدا مشوباً بالحزن، ثم سمعت اخيراً:

ـ «هالو. محمد»

وعرفتها، كانت «كاترين» إلا أنني قررت أن أتحداها بيد أنها استطردت في رجاء وتوسل:

ـ «ألم تعرفني بعد؟!»

* * *

ثم تناهى إليَّ صوت بكاء متقطع فأرهفت إليها السمع، وأخيراً قلت متسائلاً في خبث ودهاء:

ـ «من أنت؟»

فازداد بكاؤها، إلا أن قلبي رق لها أخيراً فقلت في لهجة يشوبها الاعتذار:

ـ «إني آسف. . »

فأجابت في عتاب ولوم:

ـ «لماذا تعذبني هكذا، فقد عجزت عن منع نفسي من التفكير فيك. . »

فقلت في كلمات ذات مغزى:

ـ «أرد بعض الدين!!»

ـ «انتظرني فإني قادمة حالاً. . »

قالت ذلك ثم أغلقت الخط.

وعندما قدمت، ورأتني واقفاً في وسط الحجرة اندفعت إليَّ فاحتضنتها بكل قوة ثم حملتها بين يدي ووضعتها على السرير وأخذت تعابثني.

وتطلعت نظراتها الفضولية في أنحاء الحجرة فلاحظت أن حقائبي مجهزة، ثم جلست في وسط السرير وامتدت يدها وأخذت تذكرة الطائرة وبعد أن قرأتها قالت في صوت حزين مرتعش النبرات وقد امتقع وجهها:

- «هل أنت مسافر غداً؟!»

- «نعم..»

وتطلعت إلى الخارج بنظراتها عبر النافذة ثم انبرت قائلة في صوت متهدج:

- «أواثق أنت بأنك لم تخلف وراءك ثمة شيء؟!»

فأجبت باستغراب:

- «لا أعتقد..»

فردت وقد احمر وجهها واحتقن والتمعت قطرات من الدموع على أهدابها الطويلة:

- «إني حامل!!!»

فامتقع وجهي وشعرت بالذهول والاستغراب وقلت متسائلاً متمنياً أن لا تكون في قرارة نفسي صادقة:

- «أواثقة أنت؟»

فردت وهي لا تزال تبكي:

- «أجل!!»

وتمددت على السرير في إعياء وتخاذل، وقطرات العرق تغمرني وشعرت بصداع حاد يكاد يحطم رأسي، فيما كانت نظراتي البلهاء معلقة بسقف الحجرة وكأنني أنتظر منها الحل بعد أن وقعت في هذا المأزق الحرج.

بنغازي - 1967 م

(*) نشرت في الأسبوع الثقافي بتاريخ 8/1974 م.

الوداع الأخير

جرتني قدماي في أصيل ربيع إحدى السنوات إلى التريض خارج قريتنا، وكانت الحقول تختال زاهية بما أضفته عليها الطبيعة من جمال وسحر فتفتحت الورود الصغيرة كأنها تبتسم وقد ملأت الجو رائحة طيبة..

وعند عودتي ـ وقد أنهكني التعب والإعياء ـ عرجت على مقبرة القرية القابعة تحت أقدام الجبل وكأنه أم رؤوم تحتضن وليدها في هدوء ودعة، والحقول الخضراء تبدو منبسطة على مدى الأفق حيث يصطدم بصرك بتلك

السلسلة من الجبال التي تطوق قريتنا الوادعة.

وعندما وقفت بي قدماي أمام السياج الذي يحيط بها تلكأت في الدخول، ثم دفعتني قوة مفاجئة فتغلبت على ترددي.

كانت المقبرة صغيرة نوعاً ما، يحف بها نبات الصبار والأشجار العالية متعانقة وكأنها لقاء عاشقين بعد طول فراق، فبدت متشابكة الأوراق والأغصان، جعل المقبرة تبدو وكأنها غابة تظللها الأغصان الوارفة..

كان كل شيء فيها يبدو بسيطاً، حتى القبور كانت تزينها شواهد بسيطة، يحف بها سور من الأعشاب الصغيرة الخضراء تكاد تخفيها.

وخطوت إلى الداخل في حذر ووجل، وملأتني رهبة اجتاحت نفسي في شكل برودة قاسية، وفجأة تسمرت قدماي أمام منظر فريد غريب زادني ارتباكاً.. لقد رأيت فتى قدرت أنه في السابعة عشرة من عمره، رأيته يضع إكليلاً من الزهور على أحد القبور في خشية ورهبة وفي

عينيه احمرار وبقايا دموع، وكان واضحاً أنه كان يبكي، ولاحظت أن الثرى مبتل بقطرات كأنها حبات من المطر، فراقبته بهدوء إلى أن جثا على ركبتيه في خشوع ويداه مبسوطتان إلى السماء في ضراعة وتوسل، وهو يتمتم ببعض الكلمات، وأخذتني روعة هذا المنظر فطفقت أنظر إليه برهة وجيزة. .

وشعرت بانجذاب عميق نحو هذا الشاب، ومن ثم فقد تحرك في نفسي فضولي الفطري إلى معرفة قصته مع هذا القبر. . لا بد أنها قصة مثيرة، وأخيراً لم أر بدأ من إشعار الفتى بوجودي حتى لا يعدني متطفلاً عليه، فوطأت الأغصان والأوراق اليابسة بقدمي وهصرتها في غير ما رحمة، فأحدثت صوتاً وكأنه حفيف أفعى، فالتفت إليَّ في ذعر ووجل أحالا قسماته الوادعة إلى سحنة من القلق والتوجس.

ولوَّن عينيه عتاب رقيق، وكأنه يقول لي: لماذا أفسدت عليَّ خلوتي؟ ثم تشاغل عني بالنظر إلى السماء، وتملكتني عاطفة قوية من الإشفاق عليه، خسارة شاب في

عمر الزهور تتزاحم عليه الهموم فتثقل هامته الصغيرة وتعكر صفاء نفسه . .

وقلت له بعد أن اقتربت منه في تـؤدة وقد رد على تحية المساء :

ـ «لا تخف يا صديقي ، فإنك لا تبدو غريباً عليّ ، فربما أنت مثلي أيضاً تبحث عن معنى سام ضائع وسط مظالم البشر، وحياتهم المليئة بالنفاق والخداع، وقد اندثرت، انعدمت من قلوبهم الرحمة والعطف» .

ونظر إليّ، رمقني باستغراب، نطقت بـه ملامحـه السمراء في بساطة فاستطردت وأنا أشير إلى القبر الذي غطته الزهور:

ـ «أرجو أن لا تعتبرني متطفلاً ، فيما لو سألتك مَن، مِن أحبائك يرقد في هذا القبر؟»

فتلكأ في الإجابة ثم سرح ببصره في الأفق البعيد، متتبعاً سرباً من الطيور حتى غاب، اختفى عن الأنظار، وقال في اقتضاب:

- «قبر أمي . .»

وفرض الصمت نفسه علينا، كصمت القبور التي تحيط بنا، وشعرت بالرغم من هذه اللهجة الجافة التي خاطبني بها بالاطمئنان إليه، وجذبت نفساً عميقاً وقلت وأنا أطلق زفرة حارة:

- «إننا لم نتعارف بعد؟!»

فرفع إليّ - ولأول مرة - عينين في زرقة السماء، فرأيت وكأن قصة حزينة تخفيها هاتان العينان الوادعتان وقال:

- «أنا قطرة ماء في هذا المحيط الكبير»

ثم قدم إليّ نفسه، وتم تعارفنا، ودهشت لهذا الكلام الذي يدل على المرارة واليأس . .

وكان الفتى يافعاً، وكأنما لوحته الشمس، فاكتسب سمرة محببة، وسيمات وادعة هادئة تجعلك تطمئن إليه منذ الوهلة الأولى، له عضلات مفتولة تتفق وهيئته العامة.

وكان أهم ما يلفت النظر إليه عينان لم أر في حياتي

أصدق منهما تعبيراً عن كل ما يجيش في نفس صاحبهما، بحيث تجعلان اللسان في المرتبة الثانية، فقمت وأنا أتحسسه بعيني في هدوء وهو مطرق إلى الأرض يعبث بها بعود من القش اليابس:

ـ «لا عليك يا صديقي، فإن كل إنسان يحمل معه طاقة معينة من الآلام، ومقدرة الفرد منا تكمن في تجلده ومعالجته لكافة المشكلات التي يتعرض لها، بشيء من الحكمة والأناة فيجب أن لا نضفي على هذا العالم مزيداً من القلق والضياع، فليس هناك متسع من العمر لنضيعه في مثل هذه الأمور، والتي نكتشف في النهاية أنها أمور تافهة..»

ـ «صدقت، ولقد حاولت ذلك كثيراً إلا أنني أخفقت».

ـ «هل لك أن تسمعني قصتك، ربما في ذلك تخفيف عن آلامك..»

ـ «الحقيقة أن في حديثك عزاءً لي، يجعلني أطمئن إليك وأشعر نحوك بالثقة..»

ثم بدأ يحكي قصته وقد اتخذت قسمات وجهه الصرامة فقال:

«تبدأ قصتي، عندما توفيت والدتي في ظروف غامضة بالنسبة إلى نفسي الصغيرة التي لا تعرف معنى الموت، وأنه نهاية طبيعة تنتهي عنده حياة الإنسان، فوقفت حائراً أمام هذا اللغز الكبير، لدرجة جعلت والدي يضيق ذرعاً بأسئلتي المتلاحقة التي لا تعرف لها نهاية..

«وكنت أهيم في البيت، جيئة وذهاباً، ولا أستقر في مكان معين كأنني روح هائمة، تكتنفني الوحدة والضياع، ذلك الإحساس المرير الذي تسرب إلى نفسي - مع الأيام - فحولها إلى كآبة وحزن..»

«ولعل الشيء الذي ما انفك يطاردني، هو تلك النظرة التي كانت ترمقني بها والدتي بعين هدها السقم وهي مسجاة على الفراش وقد دب الوهن في أوصالها فاعتراها الضعف والشحوب، آه.. كانت نظرة ذليلة تطفح بالتسليم والقضاء، وأدركت مع الأيام أن تلك النظرة الحزينة كانت: نظرة الوداع الأخير..»

«والواقع أن والدي كان يغمرني بعطفه، كان لا يريدني أن أشعر بالوحدة، مما عوضني شيئاً ما، عن حنان والدتي، فجعلت المسافة تقترب بيننا حتى أصبحنا أصدقاء. . »

«كان يعاملني في ثقة واحترام ويشعرني بأنني أقف معه تقريباً على قدم المساواة وشخص له أهميته في تقرير أمور حياتنا المشتركة، فكان يشركني معه في الرأي والحديث في كل شيء يعتزم القيام به، فأمدتني، زودتني هذه المعاملة بشيء من الثقة والاعتداد بالنفس. . »

«وسارت بنا الأيام في هدوء وبساطة، تظللنا السعادة، وكان كلانا يشعر بنقص في حياته، يجب أن نستقيه من مصدر واحد، وإن اختلفت نوعية العلاقة التي تربطنا به ولما تدرجت في ركاب الزمن، بدأ يتبلور هذا النقص وانحصر في شيء واحد هو أمي. . »

«ولقد حاولت عبثاً أن أتمثل صورتها، بيد أن الذاكرة لم تسعفني بذلك، غير أن خيالي صورها لي على أنها ذات جبين وضاء وعيون صافية زرقاء، وبشرة سمراء. . الخ»

فقاطعت محدثي لأول مرة وقلت له:

ـ «لعلك ورثت عنها هذه الصفات. .»

ـ «هذا يغلب عليه الظن، لأنني لا أحمل من صفات والدي شيئاً»

ثم استطرد:

«ولما بلغت الرابعة عشرة من عمري، تزوج والدي، وشعرت بالخيبة عندما لاحظت أن زوجته تختلف عن الصورة التي رسمها خيالي عن والدتي، فقد كانت زوجته ذات ملامح قاسية، جافة الحديث والتصرف، تشعرك بعدم الاطمئنان إليها، ولذلك فقد اقتصرت علاقتي معها في أضيق الحدود، يكتنفها الحذر.

«ولكن بالرغم من كل هذا، فهي تطاردني بنظراتها التي تقدح شرراً، فتلهب ظهري بتلك السياط، وتطلق لسانها اللاذع لأتفه الأسباب، فكانت الوسيلة الوحيدة لحماية نفسي منها هي الخلاء ومن ثم البعد عن محيطها. .»

«واشتكيتها لوالدي في أول الأمر فكان يطيب خاطري

بكلمات حلوة، ولما كثرت شكاياتي بدأ يلقي اللوم عليًّ، ورد عليّ في أحد الأيام في قسوة وغلظة، وعندئذ ألقيت بآخر سلاح كنت أحتفظ به لأشهره في وجه هذه السيدة..»

«وتدريجياً عرفت الطريق إلى قبر أمي، فكنت ولمدة ثلاث سنوات تقريباً أتردد عليه بين الفينة والأخرى، وأشعر براحة نفسية عميقة عندما أخاطب قبر أمي عما يلحقني من المظالم، ويخيل إليّ أن القبر كان ينتفض عند سماعها.. فكنت أجد عنده السكينة التي افتقدتها منذ أن دخلت زوجة أبي البيت..

ثم أشرق محيا الفتى بابتسامة عذبة وقال وقد اشتركت كل قسماته في التعبير عما يعتمل في ضميره:

«إلى أن كان يوم..»

«يوم وجدت فيه ـ عندما كنت أقلب بعض أوراق أبي ورسائله الخاصة عندما طلب مني أن أبحث له عن خطاب معين ـ أقصد أن أقول إنني قد وجدت صورتها هي: أمي..»

«آه . . كم كانت جميلة ولطيفة، والغريب أنها لم تخالف كثيراً الصورة التي رسمتها لها في خيالي عبر هذه السنين الطويلة . . »

ونسيت السبب الذي جئت من أجله، فلم أشعر إلا ووالدي يقف من خلفي ينظر إلى الصورة في إمعان وقد تساقطت دموعي . .

وتملكتني لحظة ضعف فاندفعت إليه أدفن رأسي الصغير بين طيات صدره الكبير، ثم طفقت أبكي في حرارة ولوعة، إلى أن هدأت نفسي قليلاً بعد أن واساني قليلاً ومسح دموعي . .

«ولم يبخل عليَّ بالصورة بل أعطاها لي، وفي تلك اللحظة الرائعة نسيت غضبي فصفحت عنه بيني وبين نفسي . . »

وقلت في نفسي : من الضروري أنه قد عمل إطاراً لهذه الصورة، وربما علقها على صدر داره، بيد أنه قطع تفكيري عندما قال:

«ومنذ ذلك اليوم وأنا أركن إلى هذه الصورة عندما أحس بشيء ما أشعر بأنني ضحيته فكنت أجد الراحة والهدوء يتسربان إلى نفسي..»

«ولطالما ساءلت نفسي: ماذا يحدث لو لم تمت؟ إنها بلا شك سوف تغير مجرى حياتي برمتها، لأن الحب الصادق يجعلك دائماً تندفع إلى الأمام فيشد من أزرك ويعينك على تحمل أعباء الحياة بكل همومها وأحزانها..»

ولما أنهى قصته رأيته يمسح دمعة ترقرقت في عينيه، ثم اقتربت منه وأنا أربت على كتفه وقد تملكني إعجاب شديد به وقلت له بصدق وحرارة:

- «إنك يا صديقي بهذه الروح الطيبة سوف تكون دوماً إنساناً سامياً مثالياً..»

- «إنك لا تشعر بقيمة الشيء إلا بعد فقدانه..»

- «الوحدة وعدم تفهم الناس لك أحياناً تدفعك مجبراً إلى سلك طريق آخر، فتزهد في صحبتهم بعد أن تتكشف فيهم عوامل الضعف والانتهاز والخداع..»

ـ «أجل، وأنا أعتقد بأنك تختلف عن هذه الفئة من الناس. . »

ولم أرد بشيء ما، ثم تلاقت أيدينا في سلام حار واحتضنت راحتيه، وسرنا في خطوات وئيدة وصافحت وجوهنا ـ ونحن خارجين ـ الحقول النضرة والورود وهي تبتسم في إغراء وفتنة. .

بنغازي ـ 6/ 4/ 1961 م

الغريب

خيم الظلام، على تلك الصحراء الشاسعة، فلفها بردائه الأبدي، وهجع كل شيء فيها إلى السكون، ومن ثم فقد هدأت ضجة تلك الآلات الضخمة التي كانت تعكر صفوها، وتنتزع الخيرات المدفونة في أعماقها بكل إصرار وتقذف بها ـ في يسر وسهولة ـ إلى تلك الأفواه الشرهة التي أصبحت هذه الثروة وقفاً عليها وحدها بينما المواطن العادي لا يقتات إلا الفتات. .

ومر الهواء فاتراً، وقد تراقصت من بعيد أضواء المعسكر الكبير فطردت جحافل الظلام التي بدت وكأنها

عملاق أسود كبير يريد أن ينقضً على فريسته، فحرمته تلك الأضواء من تحقيق هذه الأمنية.

وبدأت أتابع بنظري، طوابير العمال، وهي تنصرف في خطى عجلى لتلوذ من الأمطار، التي عاودت الهطول بلا انقطاع..

كان كل شيء في هذه الصحراء يكتنفـه الهدوء، وقطرات الماء تدق الخيمة فوق رؤوسنا فتحدث طقطقة خفيفة.

وفي هذه اللحظة دخل رفيقنا: مفتاح يجر خطواته في ثقل وإعياء، وقد ابتلّت ملابسه يبدو محتقن الوجه، يكاد يشتعل غضباً، وقد ارتعشت أطرافه في عصبية ظاهرة لم يوفق في إخفائها ثم ألقى بنفسه على السرير دفعة واحدة بكامل ملابسه، ووضع يديه تحت رأسه مباشرة، وأخذ يتطلّع إلى الخارج بنظرات بلهاء خالية من أي معنى، ومن حين لآخر يطلق زفرة حارة، ثم يضغط السيجارة بين يديه بكل قوة وقذف بها بعيداً..

وظللنا الصمت. . صمت كنا لا نسمع فيه إلا تنهداته الحارة أو هطول المطر، وأخيراً قلت محاولاً ـ بطريقة ما ـ التخفيف من حدة هذا الموقف، ومن المشاعر التي ترهقه:

ـ «ماذا حدث. . هل هناك ثمة شيء أغضبك؟!»

كان سؤالاً تافهاً سطحياً. . فما أكثر الأشياء التي تغضب المرء في حياتنا اليوم، ولكنه لسبب ما يبتلع. . يزدرد هذا الغضب ويكتم ظلمه وضعفه: وهل كان له غير ذلك؟؟»

واستغربنا جميعاً أن يغضب مفتاح، وهو المشهور بحلمه وصمته وصبره، وأخيراً قال في نبرات يتطاير منها الغضب والوعيد، وقد كوَّر إحدى يديه كأنه يتحدى بها قوة مجهولة:

ـ «وهل تعجبكم هذه الحياة بكل ما تحفل بها من تفاهة ومذلة، حياة يعيشها الفرد منا وكأنه غريب في وسط بلاده، محطماً لا ينال إلا الفتات، والأجانب يأكلون خيراتنا وأطيب ما تطرحه الأسواق. .»

ولزم الصمت، ثم جلس وسط السرير، وأخذ يخاطبنا في حرارة:

ـ «ويزداد هذا الشعور حدةً، عندما يحاول هذا الأجنبي أن يطمس كرامتك بعجرفته وغطرسته فلا تستطيع أن تسكت على ذلك..»

ولزم الصمت، وأحسست بكل ما يختلج في ضمير رفيقنا مفتاح وشعرت فعلاً بأنه قد وضع يده على الجرح الذي يدمي قلبي وضغط عليه بكل قوة.. إن هذا الجرح لن يلتئم إلاّ عندما تعود بلادنا إلينا وخيراتها تدخل كل بيت وكل جيب، وينتابني الضيق والتبرم وسط هذا الخليط من الجنسيات التي تفد على بلادي كل يوم، تحت أسماء مختلفة بعد أن يكونوا قد سلكوا كافة الدروب القذرة النتنة..

وأخيراً نطق أحد الرفاق، وكان يتابع الجدل باهتمام بالغ:

ـ «قد نكون نحن ضحية كل المظالم في هذه الدنيا ولكن سوف يأتي الوقت الذي ينفجر فيه، مرجل الغضب

دفعة واحدة فيكتسح كل شيء في طريقه. . »

والتقط أنفاسه ثم استطرد:

ـ «ستكون غضبة قوية عارمة تطيح بكل الأشرار ومن ثم تعيد كل شيء إلى وضعه الطبيعي. . »

وخيل إلينا أن الهدوء قد تسرب إلى نفس مفتاح، فهدأ قليلاً وأخيراً قال يحكي لنا ما وقع له منذ لحظات:

ـ «إن هذا الأجنبي يريدني أن أواصل العمل، وسط هذه الأمطار، بينما هو يذهب إلى «كوخه» ليضع رجليه على منضدة ما، ويحتسي الخمر فيتلذذ بوقوفي واستعباده لي، فرفضت. . »

وتملكني نحوه غضب عارم، وحاولت أن أصفعه على خده، ولكني فكرت فيما سيؤول إليه أمري، حتى خلف تلك المكاتب الرسمية الأنيقة، التي يجلس إليها رجال من العجينة النيئة، والنتيجة ليست في صالحي على أية حال. . وأخرج وأنا أكثر تعقيداً ومرارة. .

ثم أخرج سيجارة وأشعلها وجذب منها نفساً عميقاً

وأخذ يتابع حلقات الدخان التي انعقدت في سماء الخيمة، واستطرد يحكي مأساته:

ـ «تصوَّروا لي طفلين، ولم أحصل على هذا العمل إلا بصعوبة بالغة، بعد أن مكثت عاطلاً مدة ثلاثة أشهر، وكل يوم أعود وقد هدني الإعياء والتعب، وقد تعقدت نفسي من عبارة: لا توجد لدينا وظائف شاغرة وتطالعني هذه العبارة أنّى كنت، وعندما أدخل بيتي تطالعني تلك الوجوه البريئة وقد ارتسم على محياها الشاحب السقم والمرض فيقولان في صوت واحد:»

ـ «بابا.. ماذا أحضرت لنا، نريد حلوى كالأطفال».

فأنظر إليهما في حنان وعطف وتتفحصهما عيناي وهما يرتديان تلك الأسمال البالية وأقول لهما:

ـ «حاضر..»

فيقولان في إلحاح كرة أخرى:

ـ «أنت دائماً تقول لنا ذلك ولا تحضر شيئاً..»

وأشغل. . ألفت نظرهما إلى شيء آخر، وأخيراً تتلاقى نظراتي الباكية مع زوجتي. . نظرات فيها توسّل وضراعة، فتهرع هي إلى جهة ما لتداري دموعها عن الصغيرين. . »

وتدريجياً أخذت قطع الأثاث في البيت في الاختفاء، الواحدة تلو الأخرى لتسد حاجة الأفواه بالخبز فقط وإدام من الزيت نسد به رمقنا، وآلاف من الآلام الأخرى التي كنا نعيشها كل يوم تمزقنا في حين أن غيرنا قد أتخمته النعمة وكلمات قاسية تطاردني بلا رحمة: أنت عاطل. . فاشل لا تصلح لشيء. . »

وسكت قليلاً، وقد خيم علينا الصمت والسكون ونحن نصغي السمع إلى مأساته الإنسانية التي يكاد، يتقيؤها بكل مرارتها ثم أكمل:

- «ولكني أملك كل المواهب التي تجعل مني إنساناً شريفاً ومواطناً صالحاً، فقط لم تتح لي الفرصة، بينما آلاف العمال الأجانب يتدفقون ويزاحمونني على هذه اللقمة، والآخرون لا يهمهم شيء طالما أنهم يعيشون من ورائهم. . »

وفي إحدى الليالي، وقد طفحت بي عوامل اليأس والقلق، وأنا أحس بالضياع أهيم على وجهي التقيت مصادفة بأحد رفقائي القدامى.. كان إنساناً طيباً يعيش، هو الآخر في ظروف صعبة، ويتحين الفرصة لينقض على أعدائه، فذهبنا معاً إلى حانة، ومن ثم فقد أغرقنا أشجاننا في الكأس، نحاول أن ننسى بها هذا الواقع المرير الذي نرزح تحت وطأته..

ورجعت آخر الليل تملأ رأسي المأساة التي أعيشها، أمشي في خطوات مترنحة، ثم شعرت بأنني أسقط في الشارع، ولم أعد أدري شيئاً مما يحيط بي..

وعندما استيقظت في صباح اليوم التالي وجدت نفسي ممدداً في فراشي، ورأسي يكاد يطيح به الصداع، وزوجتي جاثية عند أقدامي تدعكهما في بطء وحنان وتتلمس جبيني الملتهب فيما كانت دموعها تسيل على أديم وجهها الشاحب، فأجلت بصري في أنحاء الحجرة ثم قلت لها بصوت واهن:

ـ «ماذا حدث لي..؟»

قالت وهي لم تزل تذرف دموعها:

ـ «لقد وجدوك مرمياً في الشارع، وقد لطخ ملابسك الوحل، وأحضرك هنا رجل طيب للغاية ووعد بأن يزورك صباح هذا اليوم..»

وبدأت تتراءى لي تدريجياً الصورة التي كنت عليها ليلة البارحة، وانتزعتني من أفكاري حينما قالت:

ـ «لم فعلت ذلك بنفسك؟»

ـ «لكي أنسى فقط، ولولا هؤلاء الأطفال لتركت الدنيا غير آسف عليها، فإنني حتى في أوقات صحوي أكون ثملاً دون أن أتجرع كأساً».

وبينما نحن كذلك إذ طرق الباب، ففتحه أحد أولادي وذهبت زوجتي إلى الحجرة الأخرى، ثم استأذن عليَّ في الدخول رجل في أواخر العقد الثالث من عمره، أسمر، يميل إلى النحافة، فارع الطول تلمع عيناه بالثقة والإصرار، ولما مد لي يده، واقتعد كرسياً بادرني قائلاً:

ـ «لقد كنت ليلة البارحة معرضاً لخطر حقيقي، لو لم

ترسلني العناية الإلهية إليك في الوقت المناسب لإنقاذك، فقد عرفتك من أول وهلة . . »

فتمتمت وأنا مطرق في خجل وحياء:

ـ «شكراً لك . . »

ثم تساءل قائلاً في لهجة يشوبها اللوم والعتاب:

ـ «لم فعلت ذلك بنفسك، وأنت الرجل العاقل الرزين؟!»

ـ «صدقني أن هناك ثمة أشياء تحدث، فتفقد الإنسان عقله، فلا تلمني فإنني يا سيدي أسير في طريق معبد بالأشواك التي أدمت أرجلي . . طوال هذه السنين . . »

ـ «لا تكن متشائماً هكذا . . فالدنيا ـ على أية حال ـ لا زالت بخير . . »

وأحسست بمنتهى الخجل، وأنا أستقبله في حيرة عارية من الأثاث فتقاطر مني العرق، ولاحظ هو ذلك، ويبدو أنه قد قرأ ما يجول بخاطري فقال في تواضع وبساطة:

ـ «لا داعي للخجل، فأنا ـ على أية حال ـ لست غريباً بالنسبة إليك، سوف تسترد بإذن الله كل ما فقد منك بطريقة أو بأخرى، عندما يبزغ الفجر الجديد، فأنت إنسان ذو نفس طيبة خلاقة ومعطاءة. . »

وسرت كلماته الهادئة الواثقة إلى نفسي، وأحسست بالثقة والاطمئنان في الغد، فأفرغت بين يديه كل مشاكلي ومتاعبي، فرأيت عطفاً قوياً أينعت به كل قسماته الوادعة وكلماته التي تتسم بالثقة والقوة.

ثم انصرف بهدوء، وقد بث في نفسي، قدراً كبيراً من الأمل في تغيير وجه هذه الحياة بما يتلاءم، ومتطلباتنا «وإن الناس قد تتحد في الشكل ولكنها تختلف في الجوهر والمضمون. . »

واستطعت بمساعدته، أن أحصل على هذا العمل البسيط، ولكنه مع تفاهته يمنحني ظلاً من الاطمئنان، فكيف إذاً تمتد يدي ـ المغلولة ـ إلى هذا الأجنبي لتصفعه وتعيد إليه وعيه. . »

ولما أنهى حديثه، ذهب خيالي بعيداً، حيث والديَّ وزوجتي ينتظرونني كل ثلاثة أسابيع والحلم الذي يسيطر عليّ ويؤرقني في أن نحيا حياة أفضل، وأن تنهي ابنتي، أمل، دراستها وتقف على قدميها بكل ثبات، وسط هذه الحياة، ولأضحي بكل شيء في سبيل ذلك بعد أن يزول ذلك الشعور الممل. الممعن في العذاب، ومن ثم نسترد حقنا في الحياة، من هذه الفئات الضائعة ونقذف بها في غير ما رجعة بعد أن نتخلص من عقدة كوننا: الغرباء. .

بنغازي - 10/ 9/ 1966 م

فهرس

كتب للمؤلف

(1) «الخطيئة» :

مجموعة قصص قصيرة نشرت سنة 1968 م .

(2) «شرخ في المرآة» :

مجموعة قصص قصيرة نشرت سنة 1978 م .

(3) «دمية في المزاد» : «تحت الطبع» .

الجسد الصغير

يوم كئيب، لزم فيه ابني حامد الفراش، ورسم المرض والسقم على تقاطيعه الحلوة خطوطاً عريضة صفراء، فغارت عيناه، واضمحل جسده، فجن جنوني، ولم يهدأ لي قرار، كنت طوال اليوم أذرع الكوخ جيئة وذهاباً، ويداي خلف ظهري ورأسي إلى الأرض وكأني أبحث عن شيء مفقود.. ثم أرفع بصري إليه فأراه مسجى يتقلب على فراشه ومع كل آهة وأنّة يرسلها تتقطع نفسي لها، تتمزق، ويرنو إليّ بنظرة واهنة سقيمة فتنفذ نظراته إلى أعماقي تزلزل تجلدي وصبري، فأمسح دموعي وأهرع إليه أحتضنه وأوسعه تقبيلاً، ووالدته جاثمة عند أقدامه ككلب ذليل يت... وأشعر بأن الحياة الغادرة تريد أن تنتزع مني أغلى شي...



الثمن
1000 درهم داخل الجماهيرية

